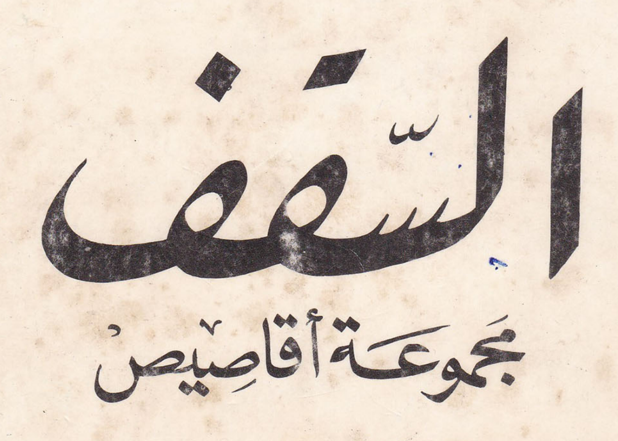
محمد ابراهيم بوعلو



منشورات "أقلام"



مجموعة أقاصيص

محمد ابراهيم بوعلو

دار النشر المغربية
الدار البيضاء

الطبعة الثالثة

1984

الايداع القانوني 166 / 1984

تقـديم

كنت وما ازال معجبا بالقصة القصيرة ، فهى لقطة حية تروى لك فى ايجاز حادثا سريعا تنتزعه من منطقة الظل لتضعه فى منطقة النـــور ، او تقتلعه من الزوايا المنسية فى خبايا اللاشعور لتثبته فى بؤرة الشعور . ولو تحدثت بلغة اقتصادية لقلت : ان سر اعجابى بالقصة القصيرة يعود الى ان الاثر الذى تحدثه يكون اعمق واوسع بكثير من الجهد المنظور المبذول فى كتابتها ، ذلك ان الذى يكتب قصة طويلة يضطر الى بذل جهد منظور اكبـــر بكثير ليحصل فى النهاية على آثار اغنى واوسع تتناسب مـــع غنى حوادث القصة الطويلة وخصبها وتعقيدها ، ولعل هذا ايضا هو الدافع الذى جعل القصة القصيرة تفوز على غيرها من ألوان الأدب الأخرى بإقبال واســـع ومتزايد باستمرار ، ربما لانها تتجاوب مع مطلب العصر الذى عودنـــا ان نلتمس اقصى منفعة ، واقصى متعة باقل جهد ، ومن أيسر سبيل ، وهذا ما يجعلنى أحس بدقة المهمة التى يضطلع بها القصاص ، فاتصاله باكبر قدر من الجمهور يحمله مسؤولية فنية وخلقية وتربوية ، وقد يدعى القصاص ان هدفه برىء ، لانه يقصد المتعة الفنية وحسب ، وان الاصالـــة والجـــودة تقتضى التحرر من كل قيد مبيت سواء فرض باسم الشكل او باسم المضمون، وان الابداع أي إبداع هو فى صميمه حرية تتجاوز حدود المالوف والمعروف ، وان الاثر الفنى يمتاز بالتفرد ، والتفرد معناه الخلق الجديد . بيد اننا اذا كنا نعترف بالحرية كشرط جوهرى لكل نشاط فنى ولكل ابداع اصيل ، فان الالتزام بالصدق هو ايضا احد الشروط الضرورية التى لا بد منها لممارســـة

اية حرية . ان الكاتب الذى يزيف الكلمة ويموهها لينقل بها احساسا كاذبا لا يعبر فى الواقع عن ذاته ، يعطل فى نفسه طاقة الخلق والابداع ، ويرتكب ازاء نفسه وازاء القارىء جريرة فنية ، وجريرة خلقية ، فالكلمة الكاذبة لا تفيد الا المتملق للضغوط الخارجية ، والخضوع لها والاعتراف بها ، ولذلك بدل ان تصبح الكلمة اداة اتصال تغدو اداة انفصال ، وطلاقا بائنا بين القارىء والكاتب .

هذه الخواطر ربما كانت مقاييس تضغط على أنا الآخر ، وتكيف رؤيتى الفنية وتذوقى الجمالى ، ولذلك كنت اضعها فى الاعتبار كلما حاولت ان أتامل اثرا فنيا . وعند ما بدات اقرا قصص الاخ محمد ابراهيم بوعلو كنت حريصا على ان اتبين مواقع اللقاء بينى وبينه ، ومن حسن الحظ انها لم تكن قليلة ، ولقد احسست فى معظم هذه القصص بصدق التجربة فى عطاء الاخ بوعلو ، ويتجلى ذلك انه يغمس قلمه فى واقع حي نعيشه ولكننا لا نلتفت أليه ، واقع نتعرف عليه ولكننا لا نعرفه . ان معرفة الواقع وادراك غرائبه وخفاياه ، ومفارقاته وتناقضاته تقتضى تجاوزه والتعالى عليه لا الاستغراق فيه ، وهى عملية لا يستطيع ان يقوم بها سوى مفكر اصيل او فنان اصيل . وقد استطاع الاخ بوعلو ان يستقى من هذا الواقع ـ بفضل حاسته الفنية ـ لوحات جديرة بالتامل والتملى . جل شخصيات هذه اللوحات من السوقة وعامة الشعب بسطاء فى تفكيرهم وعيشهم ، ولكنهم فى الوقت ذاته ضحايا قهر وحرمان يصارعون فى جلد وصبر اقدارهم ومصائرهم بدون عون وبدون رحمة ، انهم ابناء الشعب المغربى ، ولا يمكن ان يصدق ويخلص فى وصف تجربتهم سوى واحد من ابناء الشعب المغربى تشدهم اليه ، وتربطهم به وحدة الامل والالم والمصير (كما فى صباد ، والبغل ، وطبال ...) .

ولم يخطىء حدس بوعلو حينما شد ابطال قصصه الى واقعهم الحي فأدمجهم في وسائل انتاجهم ، ومراكز اهتمامهم ، فأنت تشعر فى اقصوصة

الكلب الا فرق بين الكاب ومربى الكلب ، ان لم يكن الكلب فى وضع احسن ، وانت تشعر فى اقصوصة البغل الا فرق بين البغل وصاحب البغل . وتشعر فى اقصوصة الرجل .. والصخرة .. والزاوية المهملة الا فرق بين الصخرة والذى يحاورها ، انه القهر الذى يسوى بين البشر والحجر ، وبين الانسان والحيــوان .

انها قصص غنية بالايحاء لا تخلو من رموز ذات دلالات ثورية مثــل اقصوصة الدقات الثلاث ، والبناية الجديدة ... تغلب عليهــا مسحــة البساطة سواء فى العرض او الحوار او نوعية الشخصيات ، او الطريقة التى يتخلص بها القصاص ، فما أصعب النهاية فى أية قصة سواء كانــت طويلة او قصيرة ، وقد استطاع بوعلو ان ينجح فى ختم قصصه بنهاية تخلو من الطابع التعليمى التعسفى ، الذى يفرض على القارىء حلا جاهزا ، بل ترك الايحاء والخصب ينساب محملا بمختلف الدلالات ، ايحاء يهز القارى للبحث عن حل بدل ان يملى الحل .

وبعد ، فاذا كنت قد تعرضت الى مواقع اللقاء بينى وبين الاخ بوعلو فانه لا بد لى ان اشير الى مواقع افتراق ، فكثيرا ما يضحى الاخ بوعلــو بجمال الكلمة على مذبح الفكرة ، ولا يهتم بأناقة التعبير قدر اهتمامه بعمق الحدث ، وليس ذلك ناتجا عن قصور فيما اعتقد وانما هو ناشىء عن ضمير الاخ بوعلو الذى استمر يناضل فى الم وعزلة مصرا على الاحتفاظ بصدقــه ونزاهتــه .

احمد السطاتــى

رئيس تحرير مجلة اقلام

الربــاط يوليــوز ، 1970

صيـاد

ـ صيـــدك وفـيـــر..!

ـ لا بـأس بـه .. كمـا تـــرى ..

ـ وتحســن الحـديـث بالانجليـزيــة .. ؟!

ـ اختلطـت كثيـرا بالأمريكـان أيـام الحرب ..

وانحنى من العلو الشاهـق الذى يشرف على البحر ليخرج سمكة كبيرة كانت قد علقت بصنارته ، وفيما هو يبحث لها عـن مكان بجانبه نظر الى محدثـه يسألـه :

ـ «أمـريكـــى .. ؟»

ـ نعـم .. أمريكـى .. بلادكـم جميلة جـدا .. !

ولم يجبه بشىء بل فكر : «انها كذلك بالنسبة للاجانب»

ـ أتأكـل كـل هذا السمـك .. ؟

ـ أبيعـه .. هـل تشتـرى ؟

ـ لا .. نحـن نأكـل فـى المطعـم ..

ـ مـع الاسـف ..

ـ عفـوا .. ماذا تقول .. ؟

ـ هل تصطـاد السمك فـى بلادكـم .. ؟

ـ لا .. احب فقط ان أتفرج على الصيادين ..

ـ جرب ان تصطاد .. هيا أمسك القصبة .. هذا مكان تتجمع فيه الاسماك، ويمكن لأي كان أن يصطاد منها الشيء الكثير..

وقال له وهو يأخذ منه القصبة :

ـ «لا شك أنك تكسب منه كثيــرا •• ؟»
واجابه وهو يتــرك له مكانـــه :
ـ «بعض الشىء» ثم اخرج لفافة تبغ فتلها بين اصابعه، وقبل ان يضعها بين شفتيـــه رأى امرأة تسير فى اتجاههما
ـ « من هذه؟ »
ـ زوجتى •• لقد تركتها فى السيارة •• ان هذا المنظر الرائع أعجبهــا ••
واقتربت الزوجة تسأل زوجها من غير أن تعير الصيــاد اهتمامــا ••
ـ ماذا تصنع يا(بوب)•• ؟
ـ لقد طلب منى هذا السيد أن أجرب حظى فى صيــد السمك ••
وتدخل الصياد بقوله : « انكم محظوظون » • وأطــال الامريكى النظر فيه وهو يسأله : « وكيف علمت ذلك •• ! ؟ »
ـ نحن الصيادين ندرك جيدا أن هناك أمكنة تجتمع فيها الاسماك كثيرا ، وأمكنة أخرى لا يقربها السمك •• كمـــا نـــدرك أن الحظوظ هى الاخرى تصادف جماعة من الناس دون غيرها ، كالشمس من وراء السحب تنير مكانا دون آخر •• فترى النور يشعُّ على بقعة دون أخرى ، مع أنه لا يفصل بين البقعتين أي فاصل •• لا تتعجب نحن الصيادين ندرك جيدا ما معنى الحظ » •
والتفت الامريكى الى زوجته فى ود وهو يقول لها : « انه لطيف •• لقد تعاطفت معه بسرعة •• »
وخفض الصياد رأسه استحياءا ، فبدت له أصابع قدميه تثور على حذائه المثقوب ، فاشتد خجله لذلك وهو يخفى رجليه

تحته ، ونفث دخان لفافته الى أسفل •• ثم رفع بصره بهدوء الى الزوجة التي وجدها تخصه بابتسامة امريكية فرد على ابتسامتها ، وهو يفكر فى زوجته •

ولم يمض وقت طويل حتى انسجم الامريكي مع الصيد الذى توفرت له منه خمس سمكات •• ووجدها فرصة ممتعة هاته التى تعرف فيها على صياد مماثل •• وتحادثا كثيرا حتى أصبحا وكأنهما صديقان قديمان حميمان ••

وطلب منه الصياد أن يصحبه الى مسكنه ليشربا كؤوسا من الشاي •• وقبل الامريكى الدعوة شاكرا •• غير انه فوجىء بالمسكن الخشبى المتداعى •• وتقززت نفس الزوجة وهى تدخل الاخشاب الوسخة •• ولم تسمع عبارات الترحيب التى يزفها لهما الصياد ، بل كانت كلها دهشة وهي تنقل نظراتها بين الاولاد الصغار والزوجة الهزيلة ، وهذه البقعة الضيقة الوسخة التي يسميها بيته •• ولم ينظر الامريكى الى زوجته طيلة الوقت حتى لا يشاهد تأثرها الذى لا شك سيدفعه الى القيام بحركة تفسر من طرف الصياد وزوجته تفسيراً سيّئاً •

وفى كأسين قذرين شربا ماءا وسخا منعتهما أصول المجاملة من أن يلقيا به على الارض ، وفى نيتهما أن يتناولا دواء مُبيداً للميكروبات بمجرد خروجهما •

وتبادلوا بعض كلمات عن السمك والبحر والشمس •• والهدوء •• وهم ينظرون الى خارج المسكن الوسخ ، حيث شمس المغرب تنعكس على صفحة الماء المترقرق فى منظر بديع ••

ووقف الامريكى يشكر صديقه الصياد متأثرا •• كما سكبت الزوجة كل ما تذخره من كلمات الرقة والحنان والعطف على هولاء

الصبية الذين ينظرون اليها بعيون تدور في جماجمهم الكبيرة من غير أن يفهموا منها شيئا •• وصافحت زوجة الصياد التى كانت تنظر اليها نظرة جامدة ميتة ، وكأنها تعلن عما تخبئه لزوجها من شتم على مجيئه بأناس من الاكابر •• وتفطن الـزوج الى ذلك فأخذ يترجم لها الكلمات التى تتفوه بها الامريكية ، وكأنه يقــول لهــا : « ابتسمى الآن •• واتركى حنقك الى ما بعد •• »

وصحبهما الصياد الى السيارة مودعا •• غير ان الامريكى طلب منه أن يمتطى سيارتهما ليتجول معهما قليلا فى المدينــة •• وقبل ذلك وهو لا يصدق أذنيه ، وجلــس فــى السيارة وكلـــه خجل •• ولعل سيولا من العرق البارد كانت تغرق جسمه حتى خشي أن تبقى آثار جلسته هناك الى الابد •

وفى المدينة اشترى الامريكى عدة أشياء منحها للصياد عند ما أرجعاه الى مسكنه •• ولم تنس الامريكية هى الاخــرى ان تهدي للزوجة قارورة كبيرة من العطر •• مسكتهــا بيديــن مرتجفتين وهى تبتسم من كلقلبها، فلأولمرة يدخل العطر بيتها••

وودعه الامريكى بحرارة ، ثم سلمه بطاقته الشخصيــة حيث عنوانه الذى طلب منه أن يكاتبه فيه •• وحرك الصياد رأسه عدة مرات وهو يقول : « سأبحث عمــن يكتب لى الرسائــل •• سأعمل جهدى •• شكرا •• شكرا •• »

وقبل أن يلتحق الامريكى بزوجته فى السيارة توقف ليقول له : « لم تعطنى عنوانك •• ؟ » ولكنه ندم على سؤاله هذا وهو يتجه نحو سيارته تاركا الصياد يلتفت الى مسكنه النائى وكأنــه يتعرف عليه لاول مرة ، فلقد وقع الصياد فى حيرة وهو يبحث عن عنوانه ، ثم اجابه صائحا : « هنا •• البحر •• المغرب •• »

1965 — 8 — 16

الرجل .. والصخرة ..
والزاوية المهملة

الصخرة التى كانت أمامه دفعته الى أن يصمت ٠٠ أن ينظر اليها مدة طويلة تعتمل فى نفسه انفعالات شتى من غير ان يفتح فمه بكلمة ٠٠ وأن يركز فيها نظره من غير أن يتحرك حتى لكأنه بات صخرة لها عينان ٠٠ وأحس بشعـــور جارف يربطـــه الـــى الصخرة ، فشاركها سكونها وصمتها، بل التحم معها تماما ، ونسي العالم من حولهما ، فلقد كانا وحدهما فى زاوية مهملة .

غضبه الذى احمر فى عينيه قبل لحظات قد اختفـــى ٠٠ وأوداجه التى كانت تضيق ياقة قميصه قد انسحبت من مكانها . هى الاخرى ، لتترك النسمات الباردة تنعشه ٠٠ إنه هنا ٠٠ وحيد مع صخرة صامتة ، شبيهان فى زاوية مهملة .

أن يكون المرء وحيداً ، لا يدرى ما يجرى من حوله شيء فيه كثير من الراحة والانشراح ، ولكن بمجرد ما أن تشعـــر بأن هناك من ينظر اليك ، ولو بصمت،حتى يدفعك ذلك الى أن تتخـــذ موقفا جديدا ، وتعمل جهد استطاعتك على تغيير الوضعية التـــى أنـــت عليهـــا .

فى الغالب أنهم أحسنوا صنعا عند ما ألقوا به هنا فى زاوية مظلمة مهملة ، حتى أنه لن يحرك ، بعد اليوم ، ساكنا ٠٠ وسيظل صامتا ، كما أحبوا ، ولن يزعجهم بنعيقه المرعب ، فلقد خطر بباله أن يقلد الصخرة فى عدم اكتراثها بأى شيء آخر غير وجودها ، وجودها الصخرى الذى تعيشه فى صمت ، تحمله معها أينما جملوها،

وأن ينطوى على نفسه كما تنطوى هى على أسرارها ، غير أنه بحركة مفاجئة تدحرج من مكانه ، واتجه نحو الصخرة يداعبها بين يديه ، ثم رفعها عن الارض ، فشعر بثقلها ، وتسرب الى ذهنه : أنه من الممكن أن يكون له هو الآخر وزنه ، وأنه فى إمكانه أن يختبر مدى قوته عند ما يستعمله • انه بهذه الصخرة التى بين يديه قد يستطيع أن يخرج عن صمته ، بعد أن خرج عن سكونه •• ولم يبق له الا ان يتكلم بفعل قوي •• ان الفعل القوي لا يحتاج الى لغة •• لا يحتاج الى شرح •• إنه يعبر عن نفسه بنفسه •• والجميع يفهمه •• إنه كالجسر على الوادى يدرك الجميع أنه وضع ليعبره الناس ، من غير احتياج الى من يشرح فائدة الجسر •• ان البشرية جمعاء تفهم لغة الفعل •• وبالفعل ، سيخرج هو عن صمته •• وسيدركون اذ ذاك أى شىء كان يعتمل فى داخله بعد أن أُهين فى كرامته •

عند ما أمعن النظر فى الصخرة وهى ترنو اليه ظن أنها تستهزىء منه ، وتصور أنها تفوقه قيمة بعد أن كان يعتقد أنه يساويها قيمة عند ما رموا به الى قارعة الطريق •• ولكن العكس هو الذى بدا له واضحا ، ان الصخرة تنتقم ممن يدوسها ، إنها تؤلمه ، توجعه فى رجله ، وربما ألفت به هى الاخرى أرضا ، لذا رجع الى نفسه ، فوجدها ذليلة كسيرة ، فالصخرة التافهة التى شعر برابطة قوية تربطه اليها تفوقه قيمة •• !

لم يقل شيئا فى أول الامر عند ما رموا به هناك ، واعتقد أنه من الممكن أن يقدم آخرون ينتقمون له ، وأن فاعلي الخير يوجدون فى كل زمان ومكان ، ولكن اعتقاده لم يطل به الامد إذ سرعان ما أدرك أنه فى زمن لا بد من أن ينتقم المرء فيه لنفسه ،

ولا ينتظر آخرين يتولون عنه ذلك ، لذا حاول أن يتكلم •• أن يصرخ فى وجوههم ، ويقذفهم بشتى أنواع السّباب •• غير أن نظره عند ما وقع على الصخرة ، استبد به منظرها •• أعجبه هدوؤها فى أول الامر ، ثم نظراتها الخرساء التافهة . ثم ما لبث أن انشغل عن وضعيته بهذا العالم الجديد •• ، عالم لم يعرف عنه شيئا من قبل ، عند ما كان ينظر دائما الى أعلى ••

ما أجمل أن ينظر المرء الى أعلى ، لو لم يكن بهذا العالم من يرغمك على أن تضع أنفك فى التراب •• لو لم يرموه أرضا ، لما سنحت له فرصة ليشاهد صخرة مثل هذه هادئة • منزوية عن العالم ، غير أنه من الممكن أن تكون هى الاخرى محطّ رشات البول الصفراء التى ربما كان السكارى يمطرونها بها •• وهو وان لم يبل عليه أحد بعد ، فهذا شىء له قيمته ، ولكن لا ينبغى له أن يبتعد كثيرا ، فهذه الزاوية التى وجد نفسه فيها ، تفوح عليه منها روائح ، ان لم تزكم أنفه لحد الساعة اذ ما زال يشمها فإنها تضعه فى المنزلة التى كان عليه من زمان أن يعرفها ، فلا ينظر دائما الى أعلى ، بل يخفض بصره الى حيث أمثاله ••

ولكن ، كثيرا ما شبهوه بالصخرة •• انه صلب كصخرة ، حقا ، ولكن يلزم أن يبقى فى حدود التشبيه فقط ، ولا يطمح لان يصبح صخرة بالفعل ، لان الصخرة منزلتها أعلى •• ومع أنه تنازل ــ ولو بالرغم منه ــ وشاركها صمتها ، وهدوءها ، فان هذا وحده لا يكفى ، اذ أن الصخرة فى استطاعتها أن تقوم بأشياء كثيرة •• أن تنتقم مثلا •• وهى تنتقم فى الحين من الذين يدوسون كرامتها •• أما هو فلحد الساعة ما زال يتردد ••

الانسان مصاب بالتردد •• شىء جديد ذكرته به الصخرة

التى لا تعرف التردد •• ولكن رشات البول •• ؟ حتى رشـــات البول تعكسها على ثيابهم •• ! أما هو فاذا ما أقبلوا نحوه وبالوا عليه ، فان ثيابه ستتلقف بولهم بنهم •• يكفي •• ينبغى للمرء أن يحترم نفسه ، ولا ينزل الى هذا الدرك من الاسفاف •• ينبغي ان •• ماذا •• ؟ أن ينظر الى أعلى •• ؟ ولكنهم يجبرونه علـــى أن يدرك واقعه : أنه فى زاوية مهملة ، كصخـــرة يبـــول عليهـــا السكارى ، وأنه يتردد ، وأنه لا ينتقم لنفسه ••

الصخرة التى بين يديه أثقلت عليه •• وتساءل : هـــل أثقلت عليه بالفعل أم أن ما يجول فى نفسه هو الذى أثقل عليه ، واستمر فى تردده الى أن سئم ، فترك الصخرة تنزلق من بيـــن يديه ، غير أنه ما لبث أن صاح من الالم عند ما وقعت على رجليه••

رفع الصخرة من جديد •• وتفحصها ، كأنه يسألها عن هذه القوة التى جعلته يصيح عند ما وقعت عليه غير أنها لم تقل له شيئا •• انها خرساء • صامتة •• لا تجيب بلغة ، ولكن بفعل•

وصمت عن الاسئلة التى كان يحاول أن يمطر بها صخرته وألقى عليها نظرة طويلة وهى بين يديه ، ثم مشى وهو يحملها من غير أن يقول شيئا •• لقد بات أخرس •• صامتا •• لقد صمم علـــى ألا يتكلـــم •

- 1964 -

ساعة الرفض

صافحه السيد بحرارة وهو يودعه ، بَيْدَ أنه استوقفه قبل ان يخطو أي خطوة الى الامام :

ــ أتعتقدني غبياً •• ؟

ــ سترى إذا ما نفذت فكرتي انك لست بغبي ••• بل تحسن استغلال الفرص التي تصادفك ••

ــ والآخرون •• ؟ ماذا سيقولون عني •• ؟

ــ لا تهتم بهم •• انهم سيحنقون عليك بعض الشيء في أول الامر ، ثم يتقربون اليك بعد ذلك الواحد تلو الآخر •• هذه سنة الكون ••

ــ لا •• لا ••

ــ ماذا •• ؟

ــ انا لا أقبل شيئا من هذا •• انني لا أُريد أن استغل صداقة ذوي النيات الحسنة لصالحك ••

ــ ومصالحك أيضا •• لا تنس ذلك ••

ــ انت تدفع بي اليها •• انا ليس لدي طموحك ••

ــ اذن ، أنت غبي حقا ••

ــ أنت تعتبرني كذلك •• ؟

ــ لا •• أنا أعتقد بأنك ذكي ، وفي استطاعة الرجل الذكي الا يترك الفرص تضيع منه •• اعزم •• وسترى الكلمات « الكبار » التي تسميها مبادىء انما هي ضرب من العبث ••

وليس لها أى مكان فى الواقع ••
— هل يمكن أن أفهم مـن‌هذا بأن لك عداوة قديمة مع هذه الكلمــات الكبـــار •• ؟
— اذا أحببت •• فلقد قضيت زمنا طويلا معها من غـيران أحقق أى شيء من طموحى ••
— والآن •• ؟
— كما ترى •• الجميع يحسدوننى على مكانتي ••
— يخيل اليك ذلك •• انت لا تدرى ما يقولونـــه وراء ظهــرك •• ؟
— انا لا تهمنى أقوالهم وراء ظهرى •• ان الشيء الذى يهمنى هو ان يقبلوا الارض بين يدى •• وأتلذذ بتملقهم وبمكائدهم لبعضهم البعض ليتقربوا منى •• لهم الحق ان يقولوا ما يشاؤون عند ما يختلون بأنفسهم ، ولي الحق فى أن أتصرف فى رقابهم عند ما اختلــى بهــم ••
ويضحك السيد ضحكة رنانة وهو يسأله : «ما رأيك أنت ••؟»
— هل تعتقد ذلك حقا •• ؟
— أليس هذا هو الواقع •• ؟ منذ خمس سنوات وأنت تعمل بجانبى •• ألم تلاحظ شيئا من ذلك •• ؟
— •••
— كيف •• ؟ لا تدفعنى الى أن أعتبرك غبياً ••
— اننـــى كذلـــك ••
— لا •• لا تقــل هــذا ••
— انك عند ما تريد ان تحقق اطماعك من خلال أعمال دنيئة ، وتستعملنى كوسيلة لذلك انك بهذا تحكم على بأنني أغبى

الاغبيـــاء ..

ـ ولماذا كنت تسايرنى من زمان .. ؟

ـ كنت اعتقد بأنه ستظهر لك ، فى يوم من الايـــام ، نقائصك فتتغلب عليها ، وتكفر عن سيئاتك .. وتصبح رجـلا صالحا فتستخدم ذكاءك فى أمور نافعة ..

ـ نحن فى عصر لا نحتاج فيه الى نوع من هذا السلوك

ـ بل فى حاجة الى المخاتلة والخداع واستغــلال ذوي النيات الحسنة .. أليس كذلك .. ؟

ـ إذا أحببــت ..

ـ وأي عالم ستتفتح عليه عند ما يصبح الجميع يسلك نفس السبيــل .. ؟

ـ يــا للبــراءة .. !

ـ لست ببرىء ... لأن الرجل البرىء . في عصرنــا هذا : يلزمه ولا شك أن يلوث يديه بالدم ..

ـ براءة حمراء اذن ؟ !

ـ اما انا فرجل مذنب حتى الرأس .. لأننــى لحــد الساعة لم أقف فى وجه الزيف .. بل أرضى بـــ « أكل القــوت وانتظار الموت » اننى رجل مسالم كما ترى ..

ـ والى متى ستظــل هكــذا .. ؟

ـ لست ادرى .. انما الشىء الذى تطلبه الآن منى لن أنفذه .. وأنصحك بألا تستعمل معى وسائلك الخاصة لتجعلنــى أقوم به بالرغم منى لأن ذلك ليس فى صالحك ..

ـ سنـــــرى ..

ـ استمع إلي .. أنصحك لتترك سبيلي وإلّا فستجدنى

ابشع من رأيت فى حياتك •• ولن أرجع بعد الى سالف طبعـــى ، ولن تجدنى مسالماً •• احذر هذا ••

ـ الطبل دائما فارغ ••• يحدث أصواتاً قوية •• ولا شىء غير ذلك •• سنرى •• سنرى •

ولم يودعه السيد هذه المرة بحرارة ، بل أدار له ظهره ومضى ، فى الوقت الذى كان هو فيه يحرك شفتيه وكأنه يبتلـع الكلمات التى كان أعدها له •• واشتد به حنقــه كثيرا الـــى أن تلاعبت برأسه أفكار شريرة ، غاضبة ، ناقمة ، احس معها بأن الدم الذى يغلى فى عروقه لم يعد الدم المسالم ، وانه لا شك سينفجر من عينيه المحمرّتيــن ••

وانطلق يمشى فى الشارع زائغ البصر ، فى خُطىً عصبية وكأنه السيد الذى تركه منذ قليل ••

وعند ما وصل الى الحي الذى يسكنه ، وأجال بصره فى جيرانه « ذوي النيات الحسنة » ، الذين يأكلون القوت وينتظرون الموت ، تذكر انه قد جال بذهنه ، قبل لحظات ، ان يصبح سيدا هو الآخر ، وان يلبي قبل ذلك لسيده كلّ ما طلبه منه •• غير انه ابتسم فى داخله ابتسامة لها معنى ، وهو يسمع للطبل صوتا آخر •• صوتا رزينا لم يعد معه الطبل فارغا ••

ودخل بيته وهو يفكر : « كاد العالم أن يرى انتهازيا آخر ، لولا ذوي النيــات الحسنــة •• »

1965 — 7 — 25

الجزاء الجديد

لم يدر أي فرح عظيم سيملأ جوانحه بعد قليل ، عند ما ينتعل الحذاء الجديد ، فالرغبة الملحة لاقتنائه والتى كانت تستبد به منذ زمن طويل كادت تنسيه ذلك .

فلقد صاحبه شعور خاص كلما رأى حذاءا جديدا ، حتى أنه كان مرارا يتخيل بأنه ينتعله ، لولا أن رجليه اللتين كانتا تتضايقان من بعض الحصى تذكره بأنه لم ينتعل بعد حذاءا جديدا، وأن عليه أن يذخر كل ما فى وسعه ليحصل على حذاء جديد .

غير أنه الآن ، وهو أمام الواجهة الزجاجية ، وعيناه على حذائه المفضل ، كاد أن ينسى نوع الشعور الذى سيكتنفه عند ما يضع رجليه لاول مرة فى حذاء جديد ، بلى انه تحسس الدراهم التى فى جيبه ، ليتيقن من جديد بأنه أصبح يمتلك الحذاء ، وليتأكد أكثر من أنه يمتلكه دلف الى الدكان يطلب الحذاء ، وعند ما سأله صاحب الاحذية عن مقاسه ، لم يجد جوابا ، غير أن صاحب الاحذية عند ما ألقى ببصره على رجليه أدرك بأن مقاسه واحد وأربعون ، فأخرج له حذاءا طلب منه أن ينتعله ، ومسح هو بيده قدميه من التراب قبل أن يولج القدم اليمنى ، وتطلع الى صاحب الاحذية ، وهو يحرك قدمه فيه ، فأشار له بأن ينظر الى المرآة التى أمامه ، فنظر اليها ، وهو لا يصدق عينيه بأن بقدمه حذاءا جديدا ..

واكتنفه الشعور الذى افتقده قبل قليل وهو يتخيل حذاءه

الجديد ، بل أغرقه بابتهاج جارف كاد ينسيه أن يدفع الدراهم لصاحبها •

وعند ما ودع صاحب الاحذية احتضن حذاءه ، وانطلق مسرعا نحو البيت لينتعله •

ما أجمل أن ينتعل المرء حذاءا جديدا ، ويخرج هو الآخر الى الشارع من غير ما خجل ، وأن يتلذذ بالنعومة التى تدغدغ باطن الرجل •• وألقى نظرات خاطفة على المارة من حوله ، وهم يسيرون الهويدى ، وبريق أحذيتهم ينتقل الى وجوههم •• سيكون بينهم بعد قليل وسيرفع رأسه عالياً ، ولن يُحِسَّ بِالحصى تعاكس قدميه ، ولا المسمار الصغير بقدمه اليسرى ••

لعل هؤلاء المارة قد لا يدركون قيمة ما ينتعلون ، ان جميع الاحذية لديهم سواء ما دامت جديدة ، بل انك اذا ما سألت أحدهم أى نوع من الاحذية ينتعل ، لما استطاع أن يزيد على أنه من عند البائع فلان ، أما هو فهذه الفرقة الطويلة جعلته يهتم بأصنافها وألوانها ، بل انه بتخيله فى عدة مناسبات ، يستطيع أن يدلك على مقدار ما يشعر المرء بالراحة عند ما ينتعل نوعا خاصا من هذه الاحذية ، والفروق الدقيقة بين نوع وآخر ، انه بحذائه هذا يمكنه الآن أن يدرك مقدار صحة الفروض التى تخيلها من زمن طويل •

ووصل الزقاق الذى يسكنه وهو لا يصدق نفسه بأنه يمتلك ، كالآخرين ، حذاءا جديدا • وقبل أن يدخل البيت توقفه عند الدكان كعادته ، ليشترى عشاءه : بعض حبات من الزيتون ، ونصف خبزة ، وقليلا من السكر والشاي •• سيضع ذلك بالبيت قبل أن يخرج بحذائه الى الشارع •

وسأله صاحب الدكان : ـ « ماذا تحمل بين يديك يا عباس ؟» فأجابه وبريق عينيه يلمع كمن يريد أن يشركه فى فرحه : « أنظر •• انه حذاء جديد •• » وتسلمه صاحب الدكان منه ، وتأمله قليلا قبل ان يقول : « تجد المال لتشتري الحذاء •• ولا تجده لتسد ما عليك من دين •• »

وعلت وجهه حمرة الخجل ، انه لا يجد ما يقول •• وتنحنح •• وتلعثم ولكنه لم يقل شيئا •• ووضع صاحب الدكان الحذاء فى الداخل ، وهو يرجع الى زبون كان يطلب منه بعض الحاجيات ••

وانتظره عباس الى أن انتهى ثم سأله : « كيف وجدت الحذاء ؟ أليس جميلا •• ؟ » وأجابه صاحب الدكان فى حنق : « أتستهزىء مني •• ؟ انى اجدك معتوها •• لا تقدر من يقدم لك المساعدة •• دائما تستدين منى ، وبدل أن تدفع لى ، تشترى حذاءا جديدا •• » وخفض بصره ، وهو يعتذر : « أنت لا تدرك مقدار الخجل الذى أشعر به وأنا انتعل حذائى هذا •• انظر اليه •• ان اصابع قدمى تظهر منه •• » •

ولم ينظر صاحب الدكان الى اصابع قدميه ، بل كان يلقى عليه نبأ أطار صوابه : « لن تأخذ الحذاء الجديد الا بعد أن تؤدي ما عليك من دين •• » واستشاط عباس غضبا ، وهو لا يصدق مسامعه : « لا تقل ذلك •• لا شك أنك تمزح معى •• قل لى إنك تمزح فقط •• هات الحذاء •• أنا لا أقبل مزاحا من هذا النوع • » ورفع صاحب الدكان الحذاء بين يديه ، ودخل به نحو خزانة حديدية حيث فتحها ، ورمى به داخلها ، ليستتر بين الرهائن الاخرى ، ورجع الى عباس يقول له : « انه فى حرز حريز ، ولن

تخشى عليه من السرقة ، انه داخل الحديد •• » وأجابه عباس وهو يكتم غيظه : « ولكنى أريد أن أنتعله •• » وأردف صاحب الدكان بسرعه : « عند ما تؤدى ديْنك •• » ثم اهتم بزبنائه •

وجمد عباس فى مكانه ، وأحس بالعرق يبلله وأخذ ينظر الى صاحب الدكان يتتبع حركاته ، وهو يبحث عن مخرج يستطيع به أن يعتق الحذاء من الخزانة الحديدية •• ولم يجد غير الاستعطاف مخرجا ، فكال له من الدعوات الطيبة ما لا يدرك إلا الله مقدار تنفيذها •• ومن الوعود ما لا يدرك صاحب الدكان انها لن تلبى أبدا ، لذا كانت نيته معقودة على أن خير وسيلة لضمان التعجيل بتسديد الدين هى حجز شىء نفيس ، شىء له قيمته مثل هذا الحذاء الجديد ••

ووقف عباس عند ما أعيته الحيلة بركن باب الدكان ذليلا يرفع اليه ، من مرة لأخرى ، نظرات حزينة ، تحاول بكل ما فيها من استعطاف ، ومن مسكنة أن تحرك عاطفته الانسانية فتجعله يُعيد الى عباس بهجتَه وانشراحَه ما يشكره عليه طيلة حياته • ولكن صاحب الدكان ، كان قد قفل قلبه عن كل ذلك كما قفل بمفتاح من حديد على الحذاء الجميل •• بل ليحسم الموقف انتهر عباس قائلا : « لا تقف أمامى هكذا •• لقد انتهينا •• عند ما تسدد دينك أرجع لك الحذاء •• »

وتفتقت حيلة فى ذهن عباس وهو يقول : « ان الحذاء ليس لى •• » وأجابه : « حقا •• انه ليس لك •• انه الآن لى •• لا تحاول أن تراوغنى •• هيا كن رجلا •• واذخر ما تسدد به دينك •• »

— ولكن ذلك يحتاج الى وقت طويل ••

ـ ان شابا مثلك يستطيع الحصول على المال فى **الوقت** الـــذى **يشـــاء**

ـ **ماذا** تريـــد أن **تقــول** ؟

ـ **لا أريد** أن أقول **شيئا** ، سوى أنه فى إمكانك أن **تفك** رقبة الحذاء بمال •• ابحث عن هذا المال بالطريقة التى تشاء •

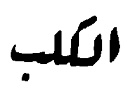
هنا اشتد الحنق بعباس فانهال على صاحب الدكان بالسب والشتم ، ولم يُفلِت عنقه من بين يديه القويتين الا الزبائن الذين تدخلوا في الوقت المناسب ••

ولكن كل ذلك لم يفتح أبواب السجن عن الحذاء الجديد •• ذلك الحذاء الذى سيسمح له بأن يشعر بأنه يسير كبقية عبـــاد الله ، مرفوع الرأس ، ولمعانه ينعكس على محياه ••

وعاود الكرة فى أن يستغفره ، ويطلب منه المعذرة ، وعندما تدخل الزبائن ، مرة أخرى ، اتفقا على أن يسمح له برؤية الحذاء من حين وحيـــن ••

وهكذا أصبحت لعباس عادة أخرى ، هى أن ينظر الـــى حذائه فيتأمله ملياً قبل أن يدخل بيته ، وهو يترقب اليوم الـــذى يطلق فيه سراحه نهائيا •• ويومها سينتعله وهو يتمتم : « مـــا أجمل أن يكون للمرء حذاء جديد » •

يـــوليـــوز ـ 1964


الكلب

لَكُمْ أن تتصوروا مقدار فرحه العظيم عند ما حظي ، هذه المرة،باهتمام المدير ، الذي لم يكن يرد على تحياته التى تتكرر كل يوم • حيث يرفع ، كل مرة ، يده الى جبهته بالتحية العسكرية التي يلح على أن تكون معبرة عن اهتمامه الشديد بسيادته ، الذى كان له الفضل عليه اذ سمح له بحراسة البيت •

لكم ان تتصوروا مقدار فرحه العظيم والمدير يلقي على سمعه : « لقد اخترتك أنت من بقية الحراس لأمانتك وحسن سلوكك لتحتفظ بشيء عزيز على ابنتى » ويترقب ، هو فى لهفة ، هذه الامانة العزيزة على ابنته ليحتضنها بين يديه ، بل ليحفظها بين ضلوعه •• ويصيخ السمع حتى لكأنه كله أذن موسيقية تلتقط أدق الذبذبات ، وعيناه على ارض الحجرة لا ترتفعان لئلا تزعجا سيادته ، الذى أضاف فى شيء من السرور : « ان ابنتى ستسافر معى فى عطلة رأس السنة ، ولا بد من أحد ليقوم بخدمة كلبها الصغير ، ولقد وقع اختيارى عليك أنت من بقية الحراس ••» وعند ما تطلع اليه المدير وادرك شدة فرحه أضاف : « وحيث أن ذلك يتطلب مصاريف فانى خصصت لك عشرة دراهم عن كل يوم • اذ ستقدم له فى كل وجبة •• » وعدّد له أنواع المأكولات الاثيرة عند الكلب الصغيـر •

ولكم ان تتصوروا مقدار فرحه العظيم وهو يمسك بالدراهم بين يديه وينزل الى الطابق الاسفل حيث يأخذ الكلب الاسود بين

يديه يداعبه ويمرر يده على ظهره طيلة الطريق.

« ما اسعدنى اذ اصبح محط اهتمام سيدى المدير •• »

أخذ يردد هذه الجملة فى داخله وهو يوصى نفسه ، من حين لآخر ، بأن يظهر للمدير ان اختياره وقع فى المكان اللائق به • فهو سيجعل الكلب يأكل من عينيه ان أمكن • وسيحتفظ به كأحد ابنائه أو أكثر ، وسيوصيهم به خيرا ، بحيث لا يأكلون وجباته المتعددة الانواع ، ولا ان يتركوه يغادر البيت • فكلب ابنة المدير يحتاج الى عناية فائقة •

وعند ما وصل البيت القصديرى ، وزف الى زوجه الخبر استبشرت خيرا وهى تسمع انواع المأكولات التى ستدخل مسكنها •• يا للصغار عند ما يشاهدون بأم أعينهم انواع الاطعمة التى تحدثهم عنها فى القصص التى ترويها لهم •• ولعلها اضمرت فى نفسها : « انهم لن يكتفوا برؤيتها فقط ، بل سأجعلهم يذوقون طعمها أيضا » ومسكت الكلب الصغير من رقبته غير انها فوجئت بزوجها يصيح فيها بلهجة صارمة : « ماذا تصنعين يا امرأة ، على مهلك •• إنه ضعيف البنية يلزم ان تمسكيه باللين •• » واحتضنته الزوجة بين يديها وهى تقول : « مسكين ، انه ضعيف البنية •• يلزم أن يأكل كثيرا •• حتى اذا ما ارجعناه لصاحبه ، ارجعناه ثخينا •• فيدرك أي أناس نحن •• ! »

والتف الصغار بأمهم والكلب بين يديها ، وهم يتعجبون من اهتمامها بهذا الكلب الاسود الاعجف •• وانتظروا ان تنزله من يديها ليعاكسوه ، ولكنها ما كانت لتفعل ، بل سلّمته بكل رقة الى زوجها الذى بدا لهم أنه يبالغ فى احترام كلب هزيل •• وعند ما اشتد فضولهم وهم يضايقونه بالتفافهم حوله زجرهم بقوله :

« اذهبوا الى الخارج .. هيّا ابتعدوا عن كلب المدير . » وعند ما تلفظ بكلمة المدير ادركوا ان الامر لا يقتصر على مجرد كلب صغير تائه بل على شيء آخر .. انه كلب المدير .. !

وابتعدوا عن الاب قليلا وهم يتعجبون من صغر جثـة كلب المدير .. وتساءل احدهم : « ولماذا هو هزيل .. ؟ ان كلب المدير يلزم ان يكون اضخم .. » وأجاب الاب : « لا .. إنـه كلب ابنة المدير .. » ورأى الصغار أنه لا بأس من أن يكـون ضئيل الجثة ما دام كلب ابنة المدير .. وتساءل آخر فى شيطنة : « ألا يمشى كلب ابنة المدير على رجليه .. ؟ ! هل هو مقعد ؟ » ولكن الاب انزل الكلب الى الارض وهو يقول: «لا .. انه يمشى .. انه يركض .. انظروا اليه ..»

وأخذ الكلب الصغير يتعلق بأذيال الصغـار يجـرى من ورائهم وهم أمامه يخرجون الى الشارع ، والاب يتبعهم فى خوفه شديد وهو يصيح : « أرجعوه الى البيت ... هيا .. لا تتركوه يضيـع .. »

وداروا دورتين امام المسكن القصديرى قبل أن يدخلوا ، وابوهم من خلفهم يلهث من شدة خوفه من أن يضيع الكلب.. ولكن الام طمأنته من أن الكلاب تتعرف بسرعة على الصغار، ولا ضير عليه اذا ما هم لاعبوه ، ففى ذلك فائدة ، اذ سيجوع كثيرا وبذلك يأكل جيدا ، وهكذا سيغدو قوي البنية عند ما يرجعه الى ابنة المدير .

وتهلل وجه الاب لفكرة زوجه ، فمعهـا حـق فى ذلـك ، وسيكون اختيار المدير صادف المكان اللائق به .. وهكذا سيزداد قيمة عنده ، ولربما زاد فى راتبه الذى لا يتعدى خمسة دراهم فى الـيـوم .

ولكم ان تتصوروا مقدار فرحه وهو يحمل بين يديه ، كل يوم ، انواع الطعام للكلب الصغير، والمدة الطويلة التى يقضيها بباب المسكن القصديرى ليتمكن الجيران من ان يروا ما يحمله من ماكولات ، وحديثه مع الكبير والصغير، فالخير قد عم بيته ، الشيء الذى دفع بعض الجيران الى الاعتقاد بأن الكلب الصغير هو مبعث هذا الحظ السعيد •

ولكم ان تتصوروا — أو أن تروا بأعينكم اذا ما انتم تطلعتم من بعض ثقوب المسكن — كما فعل بعض الجيران — الاسرة وهى تحيط بالكلب الاسود الذى يتناول اكله في شيء من الشبع •• والصغار من حوله يجمعون الفتات الذى يتساقط منه ، وهم ينتظرون الوجبة ليختطفوا ما تبقى منها•• وحتى الاب والام، من فينة لأخرى ، يسمحان لنفسيهما باختلاس بعض الطعام وهما يبتسمان للصغار •

ولتتصوروا الاهتمام الفائق الذى يبديه احدنا بشخص عزيز عليه ، هذا الاهتمام يكاد يفوقه اهتمام الاسرة بكلبها الصغير، فحتى الامور التى لا نستطيع القيام بها إزاء الضيف المحترم يقومون هم بها فى أتم الارتياح •• ولعل الاب اشدهم حرصا على تقديم واجبات الضيافة،فهو اثناء نومه يستيقظ عدة مرات ليطمئن على سلامة الكلب الصغير الذى يجد الدفء بين الصغار •

ولكن الامور ، كما يمكن ان تتصوروا ، لم تسر على هذه الحال •• لا ، لم يكن انتهاء العطلة هو السبب فى ذلك ، بل اختفاء الكلب الاسود من المسكن بصورة مفاجئة •

ولكم ان تتصوروا شدة البحث عنه التي جعلت (الدوار) يقلب رأسا على عقب ، وان الكبير والصغير علم باختفاء كلب

صغيـــر أســـود •

وحيث أنه يوجد فى كل مكـــان من يهتـــم بالسخريـــة ، وبالنكات ، فان صاحبنا لم يسلم من لذعات هؤلاء : « الكلب •• هـــا الكلـــب •• »

كما انه من الممكن دائما أن يوجد فى كل مكان وزمان من يواسيك ويعطف عليك سيما فى أيام الشدة والمصـــاب فان بعض فاعلي الخير حملوا لصاحبنا عدة أنواع من الكلاب •• ولكنهـــا ، وللاسف الشديد ، لم يكن بينها كلب المدير ، ولا يمكن ان تتقـــوم مقـــامـــه •

والنتيجة الحتمية التى يمكن تصورها هى ان صاحبنا طرد من عمله مع توبيخ وشتم •

ولكم ان تتصوروا ، فى نهاية الامر ، مقدار رغبته عند ما تستمعون اليه وهو يردد كل يوم : « ليتنى كنت كلبا عند ابنة المـــديـــر •• » •

1965 — 4 — 9

الدقات الثلاث ...

الدقات الثلاث على باب بيتنا الخشبى ستجعلنى أقف ..
الدقات الثلاث ستجعلنى أحمل كل هذه البضائع التى أمامـــى ، وانطلق معهم نحو الجبـــل ..

لم يحن بعد الوقت لذلك ، ولكننى متيقـــن من أنهـــم في طريقهم إلي ، سأفتح الكيس من جديد لأضع داخلـــه السكيـــن الحادة التى كنت أعالج بها فك رباط استعصى علي حلّه . إن جميع هذه الادوات التى بين يدى الآن لا أعلم أننى استعملتها كلها من قبل ، فوالدى كان يصدنى عن الاهتمام بذلك ، لأن لديه فكرة عن توجيهى نحو سبيل أخرى ، يعتقدها أصلح وأسلم . أما الآن ، وبعد غيبته المفاجئة فإنى أسمح لنفسى بأن أعقد مع هذه الادوات ألفة حتى أتذكر كلا منها ، فى الوقت المناسب .

ان تسلق جبل شاهق أجرد يكاد يكون أمراً مستحيلا على شاب مثلي ، لم يسبق له أن تمرّن على كل هذه الحبال والمسامير والحلقات الحديدية والمطرقة والحذاء الخشن و ... بالاضافـــة الى الخفة والشجاعة التى توضع على رأس القائمة ، ولكنى مـــع ذلك أضع كل هذه الادوات أمامى فى الحقائب التى سأحملها على ظهرى ، من غير أن ادرى عن الشجاعة والخفة شيئـــاً ، فهـــذه الامور لا يمكن بحال من الاحوال أن ادرك مقدار ما أملك منهـــا ، وان كنت مدفوعا بقوة غريبة ، تجعلنى أعتقد أننى أستطيـــع أن أكون فى خفة ريشة ، وشجاعة أسد .

لم يكن والدى محقاً فى توجيهى هذه الوجهة الهادئة البعيدة عن المخاطر،بيد أنه كان يشفع له فى ذلك اعتقاده بأنه إذا ما كان مفروضا على الذين هم فى مثل سنه بأن يتعبوا ، فما ذلك إلا من أجل أن نستريح نحن الصغار ، ولكن اعتقاده هذا لم تسمح له الايام بأن يستمر ، فما استعدادى الآن الا احدى دقات المعول فـى تهـديمـه •

الدقات الثلاث التى انتظرها قد اقترب موعدها ، وأصدقاء والدى لا شك أنهم الآن يجدّون فى السير نحو بيتنا ، وان علـى ظهورهم ما يحتاجونه من لوازم وأدوات ، إن هذا الصباح الباكر الذى أخذت ديكه فى الصياح ، يذكرنى باستعداد أبى للخـروج الى العمل • فقريتنا الصغيرة البعيدة عن المدينة والمحيطة بجبال شاهقة ، تفرض علينا نوعا خاصا من الحياة ، فسكان القرية فى الغالب يعيشون بما يصطادونه من طيور وحيوانات يطاردونها فى كل مكان ، فى الجبال ، فى الغابات المخيفة التى من وراء الجبـال والتى كم سمعنا عنها من قصص ومغامرات كانت تسمرنا فـى مكاننا من الخوف • أما الجبل الاجرد الذى كان أعلى جبالنا ، فلم يقصدونه مطلقا لا لأنهم يدركون لا جدوى ذلك فقط ولكن أيضـا اعتبارهم للجهد المضنى من أجل لا شىء ، غير أنه كانت تسمع من حين لآخر ، قصص عن بعض المغامرين الذين يقصدونه لاسباب مختلفة ، لم نكن لنعيرها اهتماما ، وان كانت تتلخص لي فى شىء واحد ، هو تحقيق الرجولة ، فالتغلب على قسوة جبل يستقيـم كالجدار ، وخال من أى نبات أو حياة يجعل المرء يقهر فى نفسه الخوف من هذا المجهول الذى لا يفصح مظهره عما يخفيه مـن ورائه • ولذلك فالساعي إليه لا يرجو من تسلقه أي شيء سـوى

الـــرغبـــة فى الانتصـــار •

وعن المغامرات التى كنّا نسمعها من جداتنا لم يكن الذين تسلقوا الجبل يتعدون رؤوس الاصابع حتى أننا كنـــا نضيـــم بمسامعنا فى الوحشة ، والعلو الشاهق ، الذى غالبا ما كان يُبالغ فيه من غير أن ندرك شيئا عما انتهى اليه الذين تسلقوه ، بيد أنه عند ما أزمع أبى مع بعض رفاقه تسلق الجبل الاجرد •• أخـــذت استرجع ما سمعته عن الرحالة الذين قصدوه ، فلم أخـــرج الا بالرهبة التى يوحى بها لنا الجبل • ولكن والدى قد صمم على تسلقه لانه تسرب الى علمه بأن المرء يستطيع أن يعود بصيد وافر لـــم يسبق أن اصطاده فى حياته •• وعادت الى ذاكرتى فكرة التغلب على المجهول الذى يجثم على قريتنا ، رمزا للاستكانة واللاحياة••

لم أمانع عند ما كان أبى يهىء أمتعته بقدر ما كانت والدتى تشدّد فى الحاح على أن يتخلى عن فكرته •• حتى أنه بدا عليـــه التأثر مرارا ، وهو يبعدها عنه ، الشىء الذى جعلنـــى أشـــك فى شجاعة والدتى التى كانت مضرب الامثال بين نساء القرية ، فهى لم تكن لتخاف من أى كان ، حتى الفأر الذى أجمع نساء العالم،فى اتفاق ضمني،على أنه حيوان مخيف كانت هى تشذ عنهم فى ذلك ، بل كم مرة كانت تقتله بيدها • غير أنها أمام فكرة والدى فى تسلق الجبل بدت لى أنها تخلت عن شجاعتها تماما ، وأنه فى الامكان أن تصيح من الفزع اذا ما فاجأها الآن فأر صغير ••

كان أبى يطمئنها ، وهو يربت على كتفها فى شىء مـــن الحنو : « لا تخشي شيئا ، كلها أربعة أيام وأعود سالما غانما •• » وعند ما حمل امتعته وانصرف ، مسحت من عينيها قطرات مـــن الدمع كانت تخفيها عنه طيلة الوقت •

وانقضت الاربعة أيام منذ أربعة أيام ولم يظهر لوالدي أثر •• مما دفعني لأن أسأل عنه كل أصدقائه ، الذين كان يخيم عليهم نوع خاص من الذهول ورغبة فى الانفراد ، يتجلى ذلك فى نظراتهم ، التى كانت تتخطى كل الحواجز لتلتحق ببعد لا نهائى • يذكرنى بالأمكنة المظلمة السحيقة الباردة ، التى تنزل من سقوفها قطرات من الماء رزينة تحدث قشعريرة فى الجسم ، بيد أن ثلاثة من أصدقائه لم يطل بهم ذهولهم كثيرا ، اذ سرعان ما خُيّل إلي أنهم سمعوا فى داخلهم هاتفاً يدعوهم للالتحاق بالعلو الشاهق حيث أبى مع أصدقائه هناك •• لذا عند ما طلبت منهم أن يصاحبوني فى البحث عنه لم يبدوا أية معارضة،بل حتى عند ما أبديت لهم جهلي المطلق بما يسمى التسلق بالجبال شفعت لهم قوة شبابى فى أن يتجاهلوا جميع تخوفاتى ، مما زاد فى اعتقادى أنهم حتما سمعوا الهاتف يدعوهم ليلتحقوا بالمجهول الذى سيحققون على علوه الشاهق انتصارهم على الخوف •

ان الدقات الثلاث التى انتظرها على باب بيتنا الخشبي ، ستجعلني ألتحق أنا الآخر بأبى ورفاقه ، غير أن الدوافع التى تدفعني لذلك لم تتضح لى بعد ، وان كانت شدة تأثرى بوالدتى التى تنتحب فى صمت يشكل بالنسبة إلي الدافع الأساسى للبحث عن أبي •

قد لا أعثر له على أثر ، ولربما لن أعود أنا أيضا ، ولكنى مع كل اعتبار أجدني سأذهب معهم من غير أن تعلم والدتي عن ذلك شيئا ••

الدقات الثلاث التى انتظرها ستجعلنى أتفتح على عالم آخر ، عالم جديد لم أكن لأفكر فيه من قبل ، ولكنني الآن مدعو

الـــى اكتشافـــه ..

حملت حقائبى على ظهرى ، ومسكت المطرقة الطويلـــة والتى تستعمل فى نفس الوقـــتكعصى أعتمد عليها .. لم يبق الا أن اسمع ... ها هى ذى الدقات الثلاث على باب بيتي الخشبي التى كنت أنتظرهـــا .

1964 — 6 — 14

الابتسام ...

« لو أمكنه أن يتكلم •• لو أمكنه أن يتكلـــم » ردّدهـــا (الصانع) فى خاطره وهو يناول (البلغة) للمعلم فسأله هذا الاخير:

ــ بماذا تتمتم •• ؟

ــ لا •• لا ••

ــ قل •• فى ماذا تفكر ؟

ــ كنت أقول فى نفسى لو أمكن لهذا الجالس بجانبى أن يتكلـــم ••

ــ أما وأنه لا يتكلم فلا بأس من أن تهتم بأمرك فقـــط، وتترك الامور التى لا تعنيك ••

ــ نعم •• ولكن ، لو أمكنه أن يتكلم ، تراه هل سيغض الطرف عن تلاعبك بشؤونه ؟ ما أظن أنه سيصمت عن ذلك لـــو أمكنـــه أن يتكلـــم ••

ــ ولكنه أبكم لا يتكلـــم

وتمتم فى داخله وهو ينظر اليه :

« آه لو كنت محظوظا حقا لكنت أنت الآخر أبكم •• وبذلك أستريـــح من فضولك » •

وانحنى على البلغة بين ركبتيه يعالج جلدها بين يديه ، وكأنه باشفته تلك يود لو يبقر بها بطن الصانع الفضولى ••

واستمر الصمت يرين على الدكان الصغير ، ولم تكن فيه الا حركات الايدّى الست التى كانت تنفرج من حين لآخر ، وهي

تمد بينهـا الخيـوط .

الابكم فى قعر الدكان ، و (الصانـع) يقابل (المعلـم) و (القرميل) يتوسط ، المكان فوقه (االتمون) الذى كان المعلـم يوسع به البلغة قبل أن يدفعها (للدلال) .

وعند ما رفع (الصانع) عينيه وجد المعلم ينظر اليه .. فقال فى داخله : « تراه ماذا يقول فى نفسه .. لا شك أنه غاصب لما ابديته من ملاحظة » وأعاد بصره الى ركبته ونظر بطرف خفي الى الابكم الذى كان العرق يتصبب من جبينه ، ويداه ، فى كل مرة ، تنفرجان بسرعة غريبة .. دفعته يقول فى نفسه : « إنـه يعمل بجد ... لو كان هناك عدل لكان هذا أولى منى بالاجـرة التى اتسلمها فى آخر الاسبوع .. ولكنه لسؤ حظه لا يتكلم .. وتذكر اليوم الذى أتى فيه الابكم مع احد افـراد عائلتـه تولـى تقديمه للمعلم ، واتفق معه على أن يعطيه مائة وخمسين ريالا فى كل أسبوع .. ومن يومها لم يعد هذا القريب يتردد على الدكان حتى يمكنه أن يرى تلاعب المعلم ، الذى أصبح يسوِّفه ويماطله حتى تجمعت لديه أكثر من ستمائة .. مسكين هذا الابكم .. ! » .

ونظر اليه (المعلم) مليا قبل ان يقول له هات الشمـع . وناوله قطعة الشمع التى كانت بجانبه ، ورفع الابكم رأسه ينظر اليهما ، فابتسم له المعلم ، وهو يطلب من الصانع ان يبتسم هو الآخر ، ولما ابتسم الصانع بدوره ، قال له المعلم : « يلزم دائما أن تبتسم فى وجهه كما أفعل أنا ، فذلك يجعله يشعر بأنـه محط محبتنا واهتمامنا مساكين هؤلاء البكم .. »

وجرض الصانع بريقه وهو يحرك رأسـه ، ان هـذه المداراة والنفاق تكاد تمسك بنياط قلبه . كان الأوْلى به أن يمنحه

أجرته كاملة على أن يبتسم له ، إن الابكم فى حاجة إلى مال لا إلى الابتسام .. ولكن المعلم تلك طريقته يحتفظ بالمال لنفسه ويمنح الابكم محبته واهتمامه .. لو أمكن للابكم أن يسمع ما يجرى حوله .. لو أمكنه أن يسمع بأذنيه ما يقال فيه .. والتهكمات التي تدور بينه وبين الزبائن .. لو ..

وفتل المعلم الخيط بين يديه وأمرّ عليه بقطعة الشمع وهو ينظر الى الشارع .. وبذلك استطاع الابكم أن يتبادل ابتسامة صادقة مع الصانع وكأنه يدرك أنهما على وفاق تام ، وان الابتسامة التى يتبادلانها فى غيبة عن المعلم تصدر عن القلب .. وقال الصانع فى داخله : « ما أسوء حظه .. ! مسكين هذا الابكم .. »

وعند ما التفت المعلم الى داخل الدكان لاحظ بريق عينى الابكم ، فالتفت بسرعة إلى الصانع وكأنه أدرك أن شيئا ما يجرى فى الخفاء ، غير أن الصانع لم يرفع عينيه لقد كان منكباً على عمله .

وسأله المعلم : ماذا كان يقول لك الابكم؟ وأجابه الصانع فى تهكم : ان الابكم من حظك لا يتكلم ..

واستدرك المعلم : قصدى بماذا كان يومىء لك ؟

وابتسم الصانع وهو يقول : انه يريد أن تسدد ما عليك من دين .. ؟

ــ هو قال لك ذلك ؟

ــ لا .. لم يقل شيئا ..

ــ وكيف علمت ؟

ــ خمنت .. قلت لا شك أنه يريد منك أن تدفع له المستحقة .

ــ ولماذا تهتم أنت بشؤون الآخرين .. ؟

أما كان الافضل أن تهتم بشؤونك فقط ؟
وهؤلاء الذين لم يمنحهم الله لساناً ألا يمكن آن نعيرهم لساننا ‌‌•• ؟
ــ لا شك أنك أصبت فى عقلك
ــ لماذا ؟
ــ لماذا ؟ انك تسألنى لماذا •• ؟ ألا تدرى انك تقلق راحتى ، وأنك تزعجنى بفضوالك •• اهتم بعملك فقط ••
ــ حسنا •• والابكم متى ستمنحه ماله •• ؟
فاستشاط المعلم غضبا ، وقد تضخمت أوداجه وهو يصيح ولم يشعر إلا وهو يقوم من مقعده نحود ، لولا أن الابكم رفع (التمّون) وهم أن يشجّ به رأس المعلم ، فمسكه الصانع من يده ، وأومأ له بأن يجلس غير أن الابكم قال له :
« لم يعد فى امكانى أن أصمت •• »
وعقدت الدهشة لسانيهما ، فالابكم أصبح يتكلم •• ! وأضاف الابكم :
« لقد كنت قطعت عهدا على نفسى بألا أتكلم مع أي أحد، وبأن يتولى أحد أقاربى أمري حتى لا اصطدم مع هؤلاء المعلمين، غير أننى لم أطق معاملة هذا « المعلم » الوقح •• إنه أنذل من رأيت •• »
واقترب (الدلال) يطلب من المعلم (البلغة) ولكنه صاح من الدهشة لما رأى الابكم واقفا « يخطب » •• فاجتمع بباب الدكان جمهور من الناس أخذوا يرددون وهم يتطلعون الى المعلم الذى أصبح كالابله مفتح العينين : « ان •• ان الابكم اصبح يتكلم !! ان الابكم أصبح يتكلم !! » وانطلق (الدلال) يقول والبلغة بين يديه :« لا يستبعد ، فى هذا البلد ، أن تلد البغلة »

1964 — 10 — 10

السقف ...

ـ « كلاّ يا سيدى فنحن دائما نحترمك •• »

وجرض بريقه ، وهو يطلعها علىموقفه أمـــام السيـــد المتغطرس وقطبت زوجته ما بين حاجبيها ، ثم قاطعتـــه وهـــى تقول : « لسنا عبيدا لاحد ، كان يلزمك أن تحدثه باختصار عن كل ذلك من غير أن تضيف شيئا من عبارات المجاملة ، لأننــا نطالب بحق من حقوقنا ، ولسنا نمد له الايدى ليمنحنا شيئا » وحــرك زوجها رأسه وهو يقول : « اعلم كل ذلك •• لكنه فاجأنى من أول وهلة ، بأننا أخذنا فى هذه الايام ، لا نحسب له وزنا وأننا أخذنا نتطاول عليه ، فما كان مني إلا أن أجبته بذلك ، لأ تخلّص الـــى المـــوضـــوع •• »

ولم ترفع الزوجة رأسها بل أطرقت تنصت اليـــه ، حيث أضاف : « فعند ما أخبرته بأن ولده « أصلحه الله » أسال الـــدم من رأس ابني ، حاول ان يدخل الى بيته من غير أن ينظر إلي . وحين استوقفته آجابني بقوله : « كنت أحسب انك ستحدثني عن أمور العمل ، لا أن تملأ وقتى بمواضيعك الصبيانية •• » ولكنني أفهمته أنه لا بد من تسوية الموضوع ، فابني طريح الفراش من جراء هذا العمل الشنيع ، وزوجتى معها حق ، عند ما ألحت علي فى أن أخبركم بذلك ، حتى لا تتكرر مثل هذه المصيبـــة •• « ألا ترون لو أن ابنكم البار اذا ما حلا له أن يفجر الدم من رأس ابنى مرة أخرى قد يقتله ؟ » ولما أطلعته على تخوفاتى نظر إلي فى هذه المرة وهو يقول : « لا تنس أن تذهب مبكرا ، الى مقلع الاحجار ، فهناك أشياء يجب انجازها قبل الضحى •• » ثم أقفل البـــاب من ورائـــه فى ازدراء ••

وتشجنت قسمات وجه الزوجة وهي تحـــاول أن تقـــول

سبب ، غير انه وضع يده على فمها وهو يقول : « يكفي •• لقد بات واضحا أنه لا بد من مقاومة والا تعرضنا للخطر •• » ثم اقترب من ابنه حيث تحسّس جبينه ، وبلع ريقه وهو يرفع بصره الى السقف •

كانت حجرة ضيقة تحويهم جميعاً ، حجرة أرضية لا تعرف لأشعة الشمس منفذا . والرطوبه تحتل منها كل الأجزاء ، والسقف الذى لا يبعد عن الارض الا قليلا ، مُن خلفه الارجل تروح وتجيء • أما الجدران فقد كانت وسخة تموت عليها أنوار القنديل الذى جلست الزوجة أمامه وقد وضعت يدها على خدها ، فى حزن ويأس ، في الوقت الذى ذهب الزوج الى الفراش •• ولعلها تمتمت غير ما مرة : « لقد بات واضحا أنه لا بد من مقاومة •• » ولم تجهد نفسها كثيرا فى البحث عن نوع هذه المقاومة لأنها تعلم — مقدما — أنها تتلخص فى الابتعاد عن هذا السقف •• ومعها حق فى ذلك لان طبيعة المرأة تجنح دائما الى الحلول السلمية •

أما الرجل الذى كان ملقى على ظهره ينظر الى السقف ، فقد بات يفكر فى أمره ، فى كثير من الحزم •• ولعلنا إذا ما حاولنا أن نتبين رأيه فى نوع هذه المقاومة ، فمن غير شك سيجيبنا بأنه لحد الساعة ما زال يفكر •• وهو الآخر ، معه حق فى ذلك ، اذ لا بد من تفكير ، وان كان يكفيه الآن أنه وصل الى نقطة ايجابية : « لا بد من مقاومة • » غير أن تصريف طاقة المقاومة يحتاج الى وقت حتى لا تضيع سدىً •• وهذا ما دفعه الآن ، الى إمعان النظر • ولعل البهجة كانت تملأ جوانحه اذ أن زوجته هى الاخرى تعتقد ذلك « لا بد من مقاومة » وقال فى نفسه : « ربما تصان كرامتها •• » ورفع بصره — على ذكر الكرامة — الى السقف وهو

يقول فى نفسه : « مع الاسف الشديد ليست لنا كرامة » .

فهو عاش طيلة حياته يصنع لأسياده المجد ، وكلما أحس بشعور الكرامة الانسانيه يثور فى داخله ، وأحب أن يرضيه بشيء ما ، كان زجر السيد المستبد وتهديده يقضيان على كل أمل في استعادة كرامته .. وكان يعمل بنصيحة رفاقه ، غير أنها كانت دائما هي هي : « دائما يلزم أن تصبر ، ان بعد العسر يسرا » ولكن العسر دائما هو العسر ولا أمل فى اليسر مع هؤلاء ...

وأخذ يعزي نفسه عند ما أصبح ابنه يدب ، وكم تهلّل وجهه مرارا وهو يؤرخ مستقبل ابنه بحروف من الذهب .. هذا الابن سوف لا يعرف الضيم ، سوف يكون مصون الكرامة ، وكثيرا ما كان يردد : « فاذا ما كان مفروضاً علينا نحن الكبار الصبر على الضيم فإننا نتقبله من أجل هؤلاء الصغار حتى لا يقاسوا ما نقاسيه .. » وكم عاش فى دنيا هؤلاء الصغار التى ياتي معها اليسر ويذهب العسر الى الابد .. الى العدم ... فهؤلاء لا يعتبرهم أطفالا صغارا ، بل شبابا ، بل رجالا ... إن مثل هؤلاء يصنعون المجد لانفسهم لا لاسيادهم ، فهم سيتعلمون فى المدارس وسيضاهون غيرهم فى المثابرة على العمل،وسيشبون على الثورة ضد كل ما يشين كرامتهم .. هؤلاء الصغار من أجلهم نتألم ... ولكن اذا ما أصبحت كرامتهم تهان وهم ما زالوا فى هذه السن ؟ فما العمل ؟ ان هذا ما لا يطيقه انسان .

واستعرت نار الثورة فى داخله عند ما وصل الى هذه النتيجة ، ونظر الى السقف وهو يهدد بقبضة يده فى الهواء .. ثم رجع الى صوابه بعض الشىء عند ما سألته زوجته .. « ماذا بك ؟ » فقال لها : « الا تنامين ؟ » .

وأطفأت الزوجة نور القنديل وقامت الى زوجها تقاسمه السرير بعد أن دثرت ابنها الذى كان يئن •• وسألها زوجها بهمس : « أما زال يعانى من ألم الجرح ؟ » فردت عليه فى حسرة : « نعم ، وأرجو أن تخف وطأة حرارته •• »

حقا ، إن جو الحجرة الضيقة محموم ، الابن يرسل أنفاساً متلاحقة والاب تلتهب فيه حمى الكرامة ، والأم ترسل بين القينة والأخرى تنهيدات عميقة ، ونكاد نجزم بأن النوم في هذه الحجرة غير محتمل ، حتى ان الزوج سأل زوجته : « كيف نستطيع أن ننام ، وصياح مذياع السادة يملأ الحجرة صخباً •• ؟؟ » وأضافت الزوجة : « انا لا يقلقنى ذلك أكثر مما يقلقنى وقع خطواتهم العصبية ، اسمع ••• » فقال لها : « انها خطوات الأب » •

ــ وهذه ؟

ــ خطوات الأم •

ــ وهذه ؟

ــ خطوات مختلفة ••

ــ اسمع •

ــ خطوات البنت ••

وابتسمت الزوجة وهي تقول : « يمكننا يا عزيزى ، ان ننام هكذا كما اعتدنا •• واجابها : « انني سئمت هذه التسلية • ان اعصابي تكاد تحترق •• » ولم تقل له زوجته شيئا •• لقد كانت على يقين بأن زوجها فى حالة متوترة ••

مرارا حاول أن ينام ، ولكنه لم يحسّ بأية رغبة فى النوم ، فالصخب الذى ينبعث من السقف كاد يفقده رشده ، لذا وضع المخدة فوق رأسه وهو يحاول ألا يسمع شيئا أو على الاقل الى

أن ينام أهل السقف •• وبعد برهة ، أخذ يسترجع ما دار بينه وبين صاحب السقف ، وعند ما وصل الى : « لا تنس أن تذهب مبكرا الى المَقْلَع » ابتسم فى داخله وكأنه أدرك نهاية تفكيره •• ووضع المخدة تحت رأسه هذه المرة وشرع يفكر من جديد •

آخذت ترتسم على قسمات وجهه ابتسامة عريضة ، حتى كأن الألم الذى كان يشعر به قد اندثر نهائيا • وكأنه لا يعانى أية أزمة • وقال فى نفسه : « ان بعد التفكير العمل •• » وعلى ذكر العمل ، تسلّل منْ الفراش بهدوء ، وانفلت نحو باب الحجرة حيث أسلم ساقيه للريح ••

كانت الزوجة قد خلدت الى النوم ، فلم تنتبه إليه ، ولكنها عند ما دارت على جنبيها عدة مرات ، ووجدت الفراش أوسع مما اعتادت ، أخذت تنادى زوجها ، ثم قامت الى القنديل وأشعلته ، واتجهت نحو الباب حيث تطلعت الى الطريق الخالية ، فهاجمتها أفكار سوداء كادت تسمرها في مكانها من الرعب • الشيء الذى جعلها تلعن الساعة التى سمحت فيها لابنها بالخروج ليلعب •• ولكنها عادت تقول : « هل الشارع موقوف عليهم هم وحدهم فقط ؟ ان من حق ابنى أن يلعب هو الآخر » لكن الامر الآن ، يتعلق بزوجها ، ايكون قد ذهب لينتقم ؟ اتراه ذهب الى البحر لينتحر ••؟ أتراه ذهب الَى العمل فى هذا الوقت المبكر ؟ وظلت هذه الاسئلة تنتظر جوابا •• وظلت هي في وقفتها تنتظر •• وبعد ساعتين تقريبا ، سمعت وقع خطوات •• سمعتها هذه المرة فى الشارع ، وأطلت برأسها ••• انه زوجها يحمل أشياء كثيرة بين يديه •

ودخل وهو يلتفت من ورائه فى احتراز شديد حيث طلب من زوجته أن تسرع بالخروج من الحجرة ، وأن تحمل ابنها

الجريح ، ثم تنتظره خارج المدينة • وفوجئت الزوجـة بهـذا التسرع الذى يشمل حركاته وأقوالـه فطلبت منه مزيـدا مـن الوضوح ، لكنه أفهمها أن ذلك سيتم فيما بعد •

وأذعنت الزوجة ، وهى تحمل ابنها على ظهرها ، وأسرعت مهرولة الى ظاهر المدينة •

فرك يدا بيد ، وهو ينظر الى السقف فى ابتسامة ساخرة ، ثم عاد الى الباب ، وهو يتتبع خطوات الزوجة فى نهاية الطريق •• وأخذ يقطع الحجرة جيئة وذهابا ، وهو يحدث نفسـه بأمـور كثيرة •• وبعد برهة كان يعتلى السرير ، حيث أثبت بالسقـف شيئا ، ثم أخرج الى الشارع خيوطا انبعثت منها أوامر الهدم • وسُمع دوي هائل ، فى الوقت الذى كان فيه يسرع الخطى إلـى ظاهر المدينة •• وعند ما وقف لاهثا أمام زوجته قال لها وهـو ينفض الغبار عن ثيابه : « لقد استرحنا من السقف ••• »

1960 — 9 — 28

صيد الفجر ..

الأمواج الصاخبة لم تفلح في أن تسرع بإيقاظ الفجر الذى أنتظره ، كانت ثائرة معربدة ، ولكنها لم تحمل ذرات الضباب التى تعلن ، عادة ، عن مقدم الفجر .

أصدقائى كانوا بجانبى نياما ، وغطيطهم الذى يرتفع من حين لآخر كان يوقع مع صخب الامواج نغمات رتيبة ... شعرت بحاجة أكيدة الى أن يطرأ شيء ما على هذه الوضعية ليغيّر من هذه النغمات الحزينة . حتى القصبة التى كانت بين يدي لم يبدُ عليها أنها فى حاجة إلى أن أحركها ما دامت لم تتلقّ آي أمـر بذلـك ، فالخيط البعيد الذى كانت تجمد عليه البرودة فى طرفه الآخر لـم يتحرك بعد ، لأنه ، هو الآخر ، لم يشعر بأية حركة تجذبـه .. وبدا لى أننا فى انتظار حركة ما حتى تتغير هذه الرتابة التى أخذت تتسرب الى داخلى مع النسمات الباردة ، وتبعث فى نفسي سأمـا لست فى حاجة اليه وأنا أنتظر الصباح ..

يداي تسمرتا على القصبة أكثر من ذي قبل ، حتى انـه بدا لى أنهما أصبحتا والقصبة شيئا واحدا .. مما جعلنـى أكـاد اعتقد أننى لن أقوم بأي رد فعل اذا ما تحرك الخيط .

وانتقل اهتمامى بيدي أكثر من اهتمامى بأي شيء آخر ، وأصبحت انتظر أية حركة لأختبرهما ، ولم أعد أطمع فى أي صيد بمقدار ما أطمع فى الحصول على يدي من جديد .. وعجبت كيف يمكن أن يفقد المرء يديه اذا ما استعملهما فى أمر مماثل ..

5

« الصبر هو الشيء الوحيد الذي يغنمه الصياد حتى ولو لم يصطد شيئا » ذلك ما قلته لنفسى ، غير أنني عقبت على ذلك :
« ولكن أليس لهذا الصبر من آخر •• ! »

كان السأم الذى تسرب قبل قليل إلى داخلي يتمـدد فى شكل دفعنى الى التفكير فى أن أصنع أي شيء •• لـولا اننـى تذكرت ان الذين يستعجلون الصبـاح هـم المستيقظـون،وأن أصدقائى النيام يحتاجون الى ليل أطول ليأخـذوا قسطهـم من الراحة •• وأن أية حركة قد أقوم بها ستجعلهم يستيقظون وأنا لست فى حاجة الى ذلك ما دامت الفرصة لم تحن بعد •• ومـا دمت لم أتلق أمرا من الطرف الآخر من الخيط ••

وانتقلت الى التفكير فى أمر هذا الطرف البعيد الذى يقبع فى الاغوار السحيقة ينتظر من يجود عليه بعضات ناعمة •• هذه العضات التى أتلذذ بها مسبقا وأشعر بعذوبتها وكأنها تدغدغنى فتدفع الدم الى عروقى حيث يجرى الى يدى يبعث فيهما حركـة ترجعهما إلـي •••

ما أعظم أن يمتلك المرء يديه من جديد بعد أن يعطلا عن الحركة أمدا طويلا •• !

وشعرت بفرح عظيم وأنا أستقبل يدى اللتين غابتا عني منذ أول الليل ، بيد أننى عند ما أحببت أن استعملهمـا أحسسـت بثقل القصبة التى كانت تمتد أمامى والتى كانت تفتقـد الخيط الذى علق بها،ذلك أنني لم أفلح فى أن أتبيّنه ، وبدا لى ان الفجر ما زال فجرا كاذبا ، وشعرت بخيبة ذهبت بالفرح الـذى كنت اعتقد معه أننى تسلمت يدي •• وعدت من جديد أشعر بتسمّر يدى على القصبة ، وبانكماشى على نفسى فى هيأة تدعو للرثاء .

الصمت الطويل الــذى كان يخيــم على رفاقى وهــم من حولى نيام جعلنى أعود الى نفسى من غير أن أطلب منهم أى شيء •• فحتى لو اننى أيقظتهم ما كنت لانتظر منهم الا أسوأ القول •• فمن عادتهم اذا ما أيقظتَهم أن يفاجئوك بغلظــة وهــم يسألونك : « ماذا تريد منا •• ؟ » ولكننــى كنت أجيب نفسي من غير أن أكلمهم : « لا شيء •• لا أريد منكم شيئا •• سأسهر وحدى ، وسأرتقب طلوع الفجر •• لأنصرف •• ولاسترد يــدي ولأكون حراً فى استعمالهما من جديد ••» حقا ، لقد كنت فى حاجة الى أن أكلم أياً كان ، ليس قتلا للوقت ولكن لأشعر أيضا بأنه ، فى هذه المرة ، فى الامكان أن أتكلم •• وما دام المرء لا يستطيع أن يقول كل الامور التى يريد أن يقولها فعلى الاقــل أن يحــرك شفتيه ويسمع حركتهما فى أذنيه ليدرك حقا بأنه ما زال حيّـــاً يرزق •• بيد أنه ليس فى استطاعتى ذلك أيضا ، ما دام هــؤلاء بجانبى نياما، وما دمت أحترم حريتهم في أن يفعلوا بأنفسهــم مــا يشــاؤون ••

كان من الممكن جدا أن أكون أنا الآخر نائما ، لو أننــى أحببت ذلك •• ولكننى ارتأيت أنه من الافضل أن أقوم بالحراسة، فى الوقت الذى ينام فيه هؤلاء •• وأنه من الافضل للمرء أن يراقب ولو مرة واحدة في حياته كيف ينفلت الفجر من ظلام الليل •• غير أنه لم يكن يخطر ببالى أن الوقت سيطول بمثل هذا المقدار •• ولعل مرد ذلك الى هذا الجمود الذى أصاب الطرف الآخر مــن الخيط ، اذ لو كان هناك حظ فى الصيد ، لما شعرت بطول الوقت، أما وأن الاسماك اتفقت فيما بينها على الا تأكل من طعومى التى أعددتها فإن أمر هذا السأم موكول كله لها ، إذ بحركة بسيطــه

من طرف الخيط تجعلنى أشعر من جديد بأن على أن أقوم بعـــدة حركات تعيد الى نفسى حيويتها ونشاطها ••

ربما أنا سىء الحظ ، ولعل أصدقائى سيقولون لـــى ذلك عند ما يستيقظون ، والا لماذا لم أصطد شيئا •• ؟

ليس الذنب ذنبى اذا لم تأكل الاسماك اطعامى ، بل ربما هى الاخرى نائمة فى جوف البحر تنتظر طلوع النهار لتشرع فـــى الاكل « ما أتفه ما يعلل المرء به نفسه ، فى ظروف مماثلـــة •• » ذلك ما ختمت به تخيلاتى وانا اتزحزح فى مقعدى ، لقد شعرت ببرودة فى مؤخرتى ••

انا لا يمكننى القيام الا اذا كان هناك شىء يستحق ذلك . والا فسأجدنى عند ما يستيقظ الآخرون ، جامدا ، قطعـــة مـــن خشب بـــاردة ••

ماذا أحس ؟ هل •• ولم أترك لنفسى حرية التساؤل ، بل انطلقت أجر الخيط •• ألفه فى البكرة بسرعة هائلة •• ثم وقفت•• حقا ان هناك شيئا ما يتحرك فى نهاية الخيط •• يستحق القيام •• كم سأحتاج الى الوقت لاصل به الى الشاطىء •• انه يمانع •• لاستغل الامواج فتعيننى عليه •• « لا شىء أفضل للصياد اذا ما كان صيده ضخما من الانسجام مع التيار •• اترك التيار يساعدك، لا تعاكسه •• لا تجذب الا اذا أقبلت الموجة •• كن رزينا •• فهذا الصيد كلفك ليلة بكاملها ••• » أخذت أخاطب نفسى بذلك وأنـــا احاول أن أتبين نهاية الخيط •• لقد اصبحت أرى نقطة انطـــلاقة من رأس القصبـــة ••

وتحرك أحد النيام وهو يسأل : «هل اصطدت شيئا ••؟»

— نعم •• لقد تم ذلك في الوقت المناسب •• وقام وهو

يفرك عينيه بيديه .. ثم تطلع إلى البحر وهو يقول :
« كن حكيما .. لا تستعجل .. »

22 – 11 – 1964

البناية الجديدة ..

البناية الجديدة التي تراها أمامك منتصبة عند ما تدخل قريتنا لها قصة طريفة ، يستطيع كل واحد من سكان القرية أن يقصها ، ولكن على طريقته الخاصة ، ربما لأن كل واحد له معها قصة ، أو لأنه يشترك مع آخر من المقربين إليه . وبالتالى يجد متعة في حكايتها ، كما لو كانت قصته هو بالذات حتى يدفعك ذلك الى أن تلمس الرابطة القوية التى تربط بين سكان قريتنا ، هذه الرابطة تكاد تكون أقوى من رابطة الدم .. فالمتكلم عادة يبدأ بـ « أنا » ثم ينتقل الى « هو » ثم « إلينا » إذّ « هم » جميعاً شخص واحد .

هذه البناية الجديدة اصبحت أضحوكة مع أنها كما ترى توحي بغير ذلك . وليس مرجع ذلك الى أن سكان قريتنا من الذين وهبهم الله سرعة البديهة ، والسخرية ، والاستهزاء ، بل على العكس انهم متجهمون عادة ، ولعل ذلك بحكم الظروف القاسية التى يعيشونها ، والتى جعلتهم ينظرون الى واقعهم من خلال نظرات معتمة ، واذا ما استعرنا لفظ نظارات فان ذلك من باب التذكير بأن هناك أربع نظارات ، يملكها خمسة أفراد من سكان قريتنا ، ثلاث نظارات لثلاثة أشخاص ، ونظارة يمتلكها بالتناوب امرأة وزوجها . ولعله يتبادر الى الذهن : لماذا الدخول فى مثل هذه الشؤون الجد خصوصية ؟ ولكن لا بأس من التذكير بأن النظارات لها دورها أيضا فى قصة البناية الجديدة .

ولندخل فى الموضوع رأسا • الرجل الـذى أمامك الآن بجانب البناية ، رجل عجوز كما ترى • وان كان لا يحمل نظارتين فهو فى أشد الحاجة اليها ، ولعله كان يشتد حرقة ليمتلكها عند ما كان الثلاثة الآخرون يتطلعون الى البناية بنـوع من الثقـة ، منحتها لهم النظارات • ليست البناية صغيرة الحجم الى حد تحتاج معه الى مكبر ، وليس سكان قريتنا ضعيفى البصر ، ولكـن لان بالبناية خطا مكتوبا يحتاج الى قراءة ، أو على الاصح بداية خط لن يتم الا بعد حين ، ومنذ أن تم والرجل العجوز يقضى معظـم أوقاته بباب البنايـة •

عند ما شرع فى الاستعدادات للبناء تساءل سكان قريتنا عن مهمة البناء الجديد ، واكتشفوا بدافع من فضول ان البنايـة ستقوم بها الدولة ، ومن ذلك اليوم أخذوا يتسقطون الاخبار ••

وتحت أشعة الشمس الدافئة ، والمحرقة أحيانا يخمنون نوع هذه البناية • فقال أحدهم انها مستشفى ، وقال آخر انهـا مدرسة ، وقال شيخ انها دار الرعاية للعجزة ، ولعلهم تطلعوا اليه فى شيء من الشفقة لأنه كان يعبّر عن رغبته فى دخول ملجأ خيرى ما دام لم يبق له من أفراد عائلته من يعينه على شؤونـه ، ولقـد ظهر لهم ذلك واضحاً عند ما تكسرت احدى قدميـه في السنـة المـاضيـة •

واستمر البناء بطيئا طيلة أشهر الصيف • وكاد أن يتوقف طيلة أشهر الشتاء • والتجأ اليه الاطفال غير ما مـرة يلعبـون بداخله عند ما ينهون أوقات دراستهم بالكتـاب • واستبطـأوا اتمامه على أحر من الجمر ، اذ يلزمهم دخول الفصل مع أكتوبر ، وقت الحرث •• بل إن آباءهم أخذوا يهيأونهم للتعود على نظام

جديد يسمى المدرسة : الجلوس على الكراسى الخشبية بدل الجلوس على الحصير ، والدخول فى الاوقات المعينة بدل الدخول فى الوقت الذى تسمح به عادة مهمات الاسرة •

ومرضى قريتنا ، كانوا هم الآخرون من حين لآخر يتساءلون عن البناية • أو كما يسمونها هم : « المستشفى الحكومى » ولعل آمالا عظاما كانت تدفعهم الى تحمل آلامهم التي ستجد نهايتها ولا شك داخل البناية الجديدة •

ولكن العجزة كانوا أشد الناس جميعا حرصا على اتمام البناء،لأن بهم رغبة أكيدة فى الحصول على سرير ، وطعام وعناية تكفل لهم صيانة كرامتهم من التسول أمام أفراد القرية الذين يعرفون ماضيهم ، وان لم يكن مجيدا بالقدر الذى يسمح لهم بالتأسف عليه ، فانه كان على كل حال ماضيا مشرفا ما دام المرء يعمل بنفسه ليعيل نفسه ، ولا ينتظر آخرين يقومون عنه بذلك كما هو واقعهم الآن •

وأخيرا لبيت رغبة الجميع فى اتمام البناء ، وصبغ بالجير الابيض الناصع ، وبدت البناية مستعدة لاستقبال أكبر عدد من السكان ، ان لم نقل كلهم ، فهي من ناحية تصلح لأن تكون مدرسة ولا تنقصها الا الالواح السوداء والمقاعد ؛ ومن ناحية أخرى تصلح لان تكون مستشفى ولا ينقصها الا الاسرة ، والادوات والادوية؛ ومن ناحية ثالثة دارا للعجزة ، ولا تختلف عن المستشفى الا في أشياء قليلة من الممكن للدولة أن تعدها لها فى الوقت المناسب ، وبذلك يلجها الرجل العجوز الذى ما يزال يجلس بجانبها •• ومع كل ذلك لم تكشف مهمة البناية الجديدة ، رغم شدة فضول السكان، وتسقطهم لأتفه الاخبار •

وتقع مظاهرة في مساء أحد الايام أمام البناية الجديدة ، ذلك أن الخطاط أخذ يستعد لكتابة عنوان بلون أحمر • ومـا أن شرع في الكتابة حتى استعد الذين يعرفون القراءة في التهجي ، والذين لا يعرفون القراءة في تتبع ما يتفوه به القراء ليتمموا هـم الكلمات قبل أن ينتهي الخطاط من كتابتها •

غير أن العملية كانت تتم ببطء شديد • فبعد الالف واللام للتعريف ، وصعود الخطاط من السلم والنزول منه كانت المجادلات والمراهنات والمشاحنات على أشدها ، مما دفـع الخطاط الـى الاحتفاظ بسر العنوان ليحتفظ بوجودهم كمعجبين •• وعند ما أضاف الى الاحتفاظ بالسر شدة البطء في الكتابة استفسره أحدهم بقـولـه :

ــ « ما بعد الالف واللام ؟ »

أجابـه بسخـريـة :

ــ « ذلك ما سأكتبه يا عزيزى •• »

ولم يعلق الرجل بعدها بشيء • فلقد أفهمه أنه فى استطاعته أن يتمم الكلمة بمجرد ما يضيف إليها حرفا آخر •

وظهر الحرف الثالث وعليه ثلاثة نقط وأصبحت الكلمـة : « الش •• » فعلق أحدهم بقوله : « انه يطلب منكم : « الصمت » وضحك بعضهم ، فى حين اهتم الآخرون بالبحث عن تتمة مفيدة •• وسأله أصحاب المستشفى ألا تكون قـد نسيت حـرف الميـم ، ووضعت فوق السين ثلاث نقط • وعند ما حرك الخطاط رأسـه بالنفي أخذوا يبحثون عن تتمة أخرى •

ولم ينس أصحاب النظارات بأن يتباهوا في هذه الاثناء على زملائهم العجزة بتمتعهم بالقراءة بيسر ، وأعار أحد الثلاثة

نظارته لصاحبنا غير أنها لم تناسب ضعف بصره فأعادها إليه شاكرا ، وهو يكتفى بالسمع فقط ..

وعند ما أضاف الخطاط حرف الراء اختل تخمين الجماعة، وانتظروا عله يضيف اليه نقطة ليصبح زايا ، وان كانوا قد أدركوا فيما بعد أنهم لا يعرفون كلمة عربية يترادف فيها الشين والزاى.

وعند ما أصبحت الكلمة : « الشر .. » أتمها أحدهم بأنها الشركة .. وقال آخر انها الشريفة .. فى حين انتظر الباقون وعلى وجوههم علامات استفهام عريضة ..

وانتهى المساء وانصرف الخطاط تاركا : « الشر » تستقر فوق بنايتنا الجديدة ، وفى نية الجميع أنه سينهي عمله صباح الغد ، وبذلك ستنتهي قصة البناية ، بيد أنه لم يحضر لا فى صباح الغد ولا في أي صباح آخر .. الا بعد أن شاهد سكان قريتنا رجال الشرطة فى حركة مستمرة يؤثثون البناية فأدركوا أنها الشرطة . وأنهم ليسوا فى حاجة الى اتمام الكلمة التي أصر الخطاط على اتمامها فيما بعد .

وليس من حاجة الى التذكير بخيبة آمال سكاننا الذين هم كشخص واحد والذين يرمز لهم صاحبنا الشيخ ، الذى يجلس بجانب البناية على أمل أن تغدو فى يوم من الايام دارا للعجزة .

1965 — 12 — 28

رفيو ..

كان بجانبى ، آخر مرة ، وهو يرفع صوته بالغناء •• كنّا نسير فى خطوات عسكرية ايقاعية ونحن ننشد احد الاناشيد التى كانت تروقه •• كان يغني ، فى حماس شديد •• وهـو يرفـع قدميه ويخفضهما ، وأنا أدرك مقدار ما يعانيه من تعب ، ومـن معاكسة الحذاء له ، فلقد طلب منى فى الصباح أن أعيره احـدي الاربطة ليشد من أزر حذائه القديم •• فلقد عالجه مدة طويلة علّه يستقيم فى قدميه ، وأن يكف عن معاكسته من غير أن ينجح ، ولم يَرَ بُدّاً من أن ينتعله ، على حاله هذه ، ويسير به طيلة هذه المدة ورغم وعورة الطريق ، فإنه ما كان يتخلف عن الغناء ••

كان بجانبى آخر مرة ، وهو يرفع صوته بالغناء ، ولـم أدر أي إحساس غريب كان يستبد بى ويجعلنى أتمنى أن أذرف قطرات من الدمع ، كان وهو يبدو عليه الانشراح أشعر به ينظر الى المستقبل •• حيث يعيش فيه لحظات سعيدة •• لقد تحرر هو ، وبالتالى تحررت معه كل العائلة •• انه يشعر باعتزاز وقـد عاش لحظات نضالية بجانب شعبه •• هذا الشعب الأبي الـذى أهين فى كرامته سينطلق من قمقمه كمارد جبار يحقـق لنفسـه الرفاهية والتقدم •• ما أسعده اذ يكون بين أبنائه يشعر بكرامته، وبإنسانيته•• ذلك ما خمّنتُ أنه يفكر فيه وهو يغني ••

ولم أستطع أن أحبس قطرات الدمع التى كانت تسيـل على خدي فقد كنت ، أنا الآخر ، أشعر ببهجة عارمة،إذ السنوات

6

الثلاث التى قضيناها بالجبل كلّلت بالانتصار •• وعدنا سالمين •
وحاولت غير ما مرة أن أصد الدمع غير أُنه ما كان يطيع لي أمرا ، فأوعزت ذلك إلى فرحتي بالحياة التى لا زلت أتمتع بها، والتى كانت من الممكن أن تنتزع مني كل لحظه • واشتد اشتياقى إلى أهلي الذين سأجتمع بهم بعد غياب ثلاث سنوات ••

واستعرضتهم أمامى واحدا واحدا ، وأنا أضيف إلى سحنتهم مقدار ثلاث سنوات لا شك أنهم كبروا فيها بعد غيابى ••

وتوقف رفيقي ليشدّ من أُزر حذائه المهترئ وهو يتريث فى مقاطع اللحن قليلا قليلا إلى أن صمت ليقول لى : « ترى أي عالم سنتفتح عليه بعد قليل •• ؟ هل لك فكرة عما سيكون عليه المستقبل ؟ »

وأجبته بأنه لا يهمنى المستقبل بقدر ما يهمني أن أرى اسرتى ، وابتسم وهو يقول لى . « ان ليلى عمرها الآن اربع عشرة سنة •• ما قولك فى ان أجد الخطاب ينتظرون عودتي ••» ووضعت يدى على خاصرته أعينه على المشي ، وأنا أقول : «انها ما تزال صغيرة •• ؟ » وعقب على ذلك بقوله « انى أمزح فقط ••» « انها ضعيفة البنية ، وتحتاج الى عشر سنوات أخرى لتبدو صالحة للزواج •• » ثم ابتسم وهو يلقى بنظره بعيدا : « ان حياتهم ستكون أفضل •• وأمامهم مستقبل باهر •• »

وعند ما أحسست بمحاولته فى سرد ماضيه التعس ، وبمقارنته بمستقبل الصغار ، وجهت انتباهه الى أنه يلزم أن نبتهج بالانتصار الذى حققناه ، وأننا بعد قليل سنُستقبل بحفاوة بالغة ، فابتسم وهو يجمع أشتات أغنيته المحببة ، وما لبث أن

انسجم مع الغناء ، ورفع من صوته القوي الرخيم يردد مقاطع النشيد ••

لم تتغير أمامنا الطريق ، مع أن الشمس كانت قد اختفت منذ قليل ، منذ أن أنزلتنا الشاحنة فى المنعرج قرب قريتنا ، لتتابع سيرها نحو المدينة البعيدة ، حيث تنزل بقية الرفاق ، الذين ودعناهم وداع من لا يعلق أملاً على لقاء قريب ، فبعد عمليات التحرير سيعود كل الى سالف عمله •

أخذت بعض الانوار تبدو لنا من قريتنا فاهتز رفيقى من الفرح وهو يضرب كتفي : « انها هي •• قريتنا •• » لم أجبه بشيء فقد اشتد بى الحنين وأنا أود لو ادخل بيتي توّاً قبل أن ينام الصغار •

ولم نحسَّ بالارض من تحتنا فقد كانت خطواتنا ، تهرول، وحذاؤه يسمع له وقع غريب ••

كل ما زلت أذكره من يومنا ذلك صوته وهو يغنى ، وايقاع حذائه وهو يهرول ، وأمله فى غد زاهر ، حيث مستقبل الصغار سيكون باهرا ••

ونظرت اليه اليوم تحت أسمال بالية فلم أتعرف عليه من أول وهلة ، فلقد حسبته من هؤلاء المتسولين الذين يمرون أمامك مآت المرات يهينون إنسانيتك التى لم تستطع أن تقدم لهم أي شيء •• بيد أني سرعان ما تبينت فيه رفيق الجبل • وعند ما عزمت على أن أربت على كتفه كان يسعل سعالا مخيفاً جعلني أغيّر من طريقة فرحتى به وأنا اقترب منه لاسانده • سائلا :

ـ طالت غيبتك •• ؟

وفوجئت بما أخبرنى به ، فالأمل فى المستقبل الباهر لم

يتحققمنه شيء ، وعمله الذى كان يقتتات منه قد كسد ، ومستقبل الصغار أصبح مظلما ، و (ليلى) تعمل عند الاجانب •• والمرض الوبيل يأكل منه الرطب واليابس • وأحسست بشدة حاجته الى خمسة دراهم،ولكن أنفته كانت تمنعـــه من أن يستديـــن ، وغيّر الحديث بسرعة عند ما سلمته الدراهم بقوله :

دلك « ما كان أحسن أيام الجبل •• ! »

مـــارس — 1965

انسان .. بعدو

يبدو ، فى نظره ، أنه ليست هناك حدود فاصلة بين مواقف جليلة وأخرى رذيلة •• فالانسان الذى يجري من شدة الخوف ، او من اجل الوصول إلى غاية ، أو من آجل الجري نفسه ، يكــاد يكون كل ذلك شيئاً واحدا ••

وخطر له أن يقف قليلا ليتمعن في هذا الحكم المرتجل ، غير أنه لم يتمكن من أن يصرف رجليه عن حركتهما المتواصلــة ، حتى أنه عند ما لم يفلح فى أن يتلقى خضوعا لأوامره الالف نظــر اليهما شزراً فاذا بهما ككائنين بشريين يتسابقان فى عناد وعنف•• وتاقت نفسه ، هذه المرة ، إلى أن يسخر منهما ، لكنه باعد عنــه التفكير فى ذلك ، إذ لا بد للمرء لكى يحصل على درجة من أن يكون رزينا ، أو على الاصح أن يمثل الرجل الرزين ••

والتفت الى ورائه فى عجلة ، وسرعان ما ارتعدت فرائصه، فقطيع المتسابقين يقترب منه •• وهنا سارع باعطاء أوامر إلــى رجليه في أن تضاعفا السرعة ، واذا بهما ترتفعان وتنخفضان فى جنون ، تضربان الارض الصلبة ، تلحان عليها في أن تتريث قليلا فى دورانها ليصل هو قبل بضع ثوان من عقرب الساعة الحمقاء •• وليقول الناس عنه : « انه الفائز الاول •• ! »

والتفت مرة أخرى الى رفاقه ، واذا به يشكر رجليه اللتين تحسنان الخضوع لأوامره فى الوقت المناسب ، فقد كان بعيــدا عنهم تماما •• وشعر بانشراح فى داخله،ومسح بعض حبات من

العرق عن جبينه وهو يتمتم : « ما أجمل أن يكون المرء بعيــــدا عن القطيــع •• ! »

وظهرت على حافتى الطريق جماعة من النـــاس أخـذت تصفق له عند ما اقترب منها •• وعند ما حاول الاتصال برجليــه يطلب منهما ان تبديا حركـــات تمثيلية لرجــل يحسن السبـــاق أدرك أنه فقد السلطة على رجليه ، بل انه لم يشعر بهمــا مطلقا ، فلقد كانتا بعيدتين عنه ، بعده عن « القطيع » ••

وشق عليه أن تتخلف رجلاه عنه فى هذه اللحظة بالذات•• فالتصفيقات الحادة كانت تصل الى أذنيه ، ولكنه لم يكن يسمع أى شىء يصدر عن هذين الكائنين « الآدميين » أقرب الناس اليه ••! بل لعلهما كانتا فى نشوة الانتصار غير أنه خاطبهما فى داخلــه : « ولكنه ليس بالانتصار النهائى •• ذاك الذى سيتم عنــد مــا تجتازان خط الوصول •• » ولم يتلق أي رد فعل ، مما دفعه لأن يلعن اللحظة التى سمح لهما فيها بالسباق ••

الظاهر أنها المرة الاولى التى يقف فيها وجها لوجه أمام الناس ، فهو من قبل كان يشعر باتصال مستمر مع قدميه ، ولعل ذلك مرجعه الى أنه كان ، دائما ، بين رفاقه ، أما الآن فهو وحيد ، وعيون « الآخرين » تفقده الاتصال بقدميه ، ولذا سارع بتمثيل دور الرجل الرزين ، فلقد أخفى لسانه الذى كان يتدلّــى طيلــة الطريق •• وفرح لاستجابة لسانه له ، فهو وان لــم يكن محط أنظارهم ، فعلى الاقل فى استطاعته ان يوحي بشىء •• وشعــر لأول مرة بأن له ذراعين ، فقد كانتا تهتزان فى حركات بهلوانيــة عجيبة دفعته الى أن يضحك ، غير أنه لم يفعل ، وفضل ان يظــل محطّ اعجاب الناس •• وأن يذخر هذا الضحك الى فرصة أخرى،

إلى أن يكون وحيدا ••

ولكن لماذا يجري •• ؟ حقا لماذا هو يلهث هكذا ويتراقص أمام عينيه ، فى كل لحظة ، خطٌ الوصول الابيض ، ذلك الخط الذى تنتهي عنده مسافة السباق ؟ أمن أجل أن يصفق له الآخرون •• ؟ أم من أجل أن يحرز على المال •• ؟ إنه لحد الساعة لا يدري لماذا يجرى •• قد يكون مدفوعا الى ذلك •• ولكنه لا يقبل أن يتصرف الآخرون فى أمره ، انه يحب دائما ، أن يكون هو رب أفعاله •• إنه يعتقد ، دائما ، انه حرّ •• ولذا عند ما أُلحّ عليه السؤال : « ولماذا تجرى إذن •• ؟ » كان يجيب : « من أجل الجري •• » ولكن هل هذا سبب معقول : أن يجريَ المرء طيلة هذا الوقت من أجل لا شيء •• من أجل الجري فقط •• ؟

وبدل أن يجيب استبدت به رغبة فى الضحك •• أن يضحك من نفسه ، ومن هؤلاء الذين يصفقون له على طول الطريق ••

***

عند خط الوصول كانت جماعة من الناس تنتظر •• وبدا من بينها رجل أعرج على أحر من الجمر لوصول المتسابقين ، كان ينتقل من مكان لآخر ، وعكازتاه تتقدمانه فى خفة ، الى ان استلفت نظر كثير من الحاضرين ، مما دفع أحدهم ليعلق عليه بقوله : « ها هو ذا الفائز الاول •• ! » وضحكت جماعة كانت بالقرب من المعلق الذى لم يكن ، طيلة الانتظار ، ليكف عن تعليقاته الساخرة، الى أن جزره أحدهم بقوله : « استح يا رجل •• انه أكبر منك سنا •• »

— اننا نمزح فقط ••

— يا لجيل اليوم •• انكم لا تحترمون أحدا ••!

قال ذلك وهو يبتعد عنه قبل أن يسمع المعلـق يقـول :
« ولكننا نمزح .. نمزح .. نمزح فقط .. »

وتتبع الناس حركات الاعرج وهو يقترب من المراقبين ، ويدخل رأسه بينهم ينظر الى ساعاتهم الثلاث ، وهو لا يفتأ يرفع رأسه من حين لآخر علّه يرى بداية القافلة ..

وصاح فيه المعلق عند ما توسط الطريـق : « افـرغ الطريق يا هذا .. وانتظر الشوط الأخير .. فلا شك أنك ستحرز الرتبة الاولى .. ! » ونظر اليه الاعرج شزرا ، وهو يعتمد على عكازة واحدة فى حين شغل يده باخراج سيجارة من جيبه .. ورد آخر من الصف المقابل بقوله : « بل ان القافلة تأخرت عنه .. لقد سبقها بمدة طويلة .. ان ثلاثة أرجل ليست كاثنين .. »

وضحكت الجماعة فى الوقت الذى كان يشعـل الاعـرج سيجارته ، وينتحى ركناً بعيداً ، من غير أن يبعـد نظـره عـن الطريق .. لقد كان يفكر فى أشياء كثيرة ، من غير أن يهتم بمـا يقـولـون ..

صاح أحد الاطفال من بعيد : «لقد أقبلوا.. لقد أقبلوا..» فاشرأبت الاعناق ، واستطال من بينها عنق الاعرج يتطلـع فـى لهفـة ..

ظهر الفائز الاول يركض فى اعياء ، ويداه تهتزان فـي ارتخاء يدعو الى الضحك ، ولعله فى هذه المرة يستطيع أن يلبـي هذه الرغبة التى ألحت عليه مرارا،سيما وأنه لا بد أن يجيب عن التصفيقات الحادة التى دوت من كلا الصفين بشىء من هذا القبيل، فخط الوصول لم يبق بينه وبين اجتيازه الا عشر الثانية ..

وأخذ ينقل بصره فى الحاضرين ، وهو يجتاز خط الوصول،

حتى اذا ما وقعت عينه على الاعرج بسط له ذراعيه ••

وتشبث به الاعرج تشبثا قويا •• ثم مشيا معا جنبا الى جنب ، وما لبث الاعرج أن قال له وهو ينقل نظراته فى جمـــوع المتفرجين : « لقد كنت متيقناً من أنك ستصل الاول •• لقد كنت متيقنا من ذلك يا بنى ••• »

1963 — 2 — 12

البغل

نظر الى البغل المربوط الى العربة ، وحمد ، فى نفسه حسن الصدف التى جعلت منه انسانا ، فمنظر البغل يبعث في نفسه الاشمئزاز كلما وصل به الى هذه العقبة ، اذ كان على البغل ان يخرج لسانه من بين شفتيه ليقوّي من عزيمته حتى يصعده بسلام ، ولم يكن هو لينسى ، فى هذه اللحظة بالذات ، ان يحرك سوطه فى الهواء ليذكره بأن من ورائه رقيبا •

وعند ما يجتاز البغل هذه المرحلة الصعبة من طريقه . ويستأنف رتابة خطواته يعود هو الى شروده من غير ان يحمد الصدف التى لم تجعل منه بغلا •• بل يستأنف تطلعه الى البحر ، وينساق مع نغمات أمواجه التى كانت تبدد وقع خطوات البغل •

ولما يتوقف البغل فى ورشة العمل يقوم بفك رباطه ويفرغ العربة من الرمل ليعود الى ملئها من جديد، وعند ما يصل البغل الى العقبة يلوح بسوطه فى الهواء ، ويشمئز قليلا ، ثم يعود الى شروده •

واذا ما استثنينا ايام العطل فان رب العمل من الممكن ، فى أي وقت أن يدلك على المكان الذى يوجد فيه • ولهذا فهو راض عنه بعض الشيء •

حقا انه لا ينسى أُن يطلب منه أُن يسرع فى عمله قليلا ، ولكن هذا لا يقع الا فى اليوم الذى يسلمه فيه أجرته ، ولعل مرجع ذلك الى الطريقة التى يسير عليها رب العمل ، والتى يومن بها

ايمانا قويا ، فهو يعتقد ان الاوامر تنفذ الى قلب العامل فى الوقت الذى يتسلم فيه أجرته ، انه يتقبلها كما يتقبل أجرتـه ، ولكـن صاحبنا يتسلم ، دائما ، أجرته من غير أن يتقبل معها شيئا آخر، فالبغل فى نظره لا يستطيع أن يسرع اكثر ويكفيه لسوء حظـه ، أن يظل طول يومه يجرّ هذه العربة • وهو لا يدرى لمـاذا يعطف عليه فقد يكون لذلك سبب خفي ، لعله سوء الصدف التـى جعلت من البغل حيوانا يذكره ، فى كل مرة ، انه كان من الممكن ان يكون فى مثل حاله هذه ، او قد يكون شيئا آخر •• غير انه مع كل اعتبار يعترف فى قرارة نفسه أنه يقضى معه من الوقت ما لا يقضيه مع أى انسان آخر ، ولواجب هذه الرفقة يرى أنه من اللازم ان يعطف عليه •• وهو فى هذه المرة عند ما نظر اليه ، ولسانه بين أسنانه ، لم يفكر فى رفع السوط فى الهواء ، بل اقترب من العربة ، وساعده فى جرها ، فقد كان الرمل مبللا بمياه المطر •

وعند ما اجتازا العقبة شعر بأنه ما يزال يحتفـظ بقـوة شبابه ، فاستنشق كثيرا من الهواء وهو ينفض التراب عن يديه ، ثم ارسل بصره بعيدا ، وحيث ان الطريق كانت فارغـة سمـح لنفسه بالغنـاء •

كان البغل يهرول ، وهو من ورائه يغني ، بيد أن مقاطـع أغنيته أخذت تخفت شيئا فشيئا ، فلقد لمـح شيئا بين التراب •• ورفع بين يديه نصف ورقة مالية مسح ما علق بها من غبـار ، فاذا هى ألف فرنك ، أو على الاصح نصف ألف فرنك •

وتساءل: ماذا يستطيع المرء أن يصنع بألف فرنك ؟ وابتسم فى داخله ثم ما فتىء ان اخذ يشترى ما ينقصه من ثياب ، حتى اذا انتهى من ذلك ، فكر فى الدائنين،حتى اذا ما دفع لهم جميعا ما عليه

انتقل يفكر فى قضاء أمسية شيقة ، فألف فرنك من الممكن أُن يسهر بها عامل مثله الى الصباح فى احد الاماكن النائية ٠

وتخيّل نفسه فى صباح الغد ، وقد اصابه العياء من جـــراء ليلته تلك ٠٠ وتطلع الى العربه فقد كانت أمامه تهرول ٠٠ وقال في نفســـه : « من الممكن ان أجري لأدراكها » وقبل أن يجريَ تطلع الى الورقة المالية ، بين يديه ، ثم انتقل يبحث عن نصفها الآخـــر وانكب على التقاط الاوراق المبعثرة فى التراب أمامـــه ، يتبيّنهـــا الواحدة تلو الاخرى ، وهو فى كل مرة يوهـــم نفسه بأنهـــا هـــي النصف المنشـــود ٠

ومرّ به أحد العاطلين ٠٠ وانحنى عليه يسأله :

ــ أي شىء ضاع منك ؟

ــ نصف الف فرنك

ــ وكيف ضاعت منك ؟

ورفع رأسه فى هذه المرة اليه : « لقد ضاعت هكذا من غير أن أعرف كيف » ٠ ثم انكب يبحث من جديد ٠

وانحنى الرجل يساعده ، ولما يئس من العثور عليها قال له وهو يبتعد عنه : « إنك لا تلبث ان تجدها اذا كنت متأكدا مـــن انها ضاعت فى هذا المكان » ٠

وأجابه من غير أن يرفع رأسه : « نعم ٠٠ نعم ٠٠ » ثـــم أخذ يحدث نفسه وهو ينتقل من مكان الى آخر : لو اننى اطلعتـــه على الحكاية من أولها أكان يتركنى هكذا ٠ لا ٠٠ انه كان سيبحث عنها بكل اهتمام ثم يطالبنى بنصفها على الاقل ٠٠ ولكننى احسنت عند ما اخفيت عنه الحقيقة ٠ وابتسم لهذا الانتصار غير ان فرحه هذا لم يطل امده ، إذ سرعان ما تراقصت فى دماغه فكرة لعينة :

7

« من المحتمل ان يكون هذا الصعلوك قد وجدها وأخفاها عنك » •
واستقام ينظر اليه ، غير انه كان قد ابتعد عنه تماما ، وتذكر البغل، وعند ما رأى الطريق فارغة امامه ولا اثر فيها لاي بغل عقد ما بين حاجبيه ، وربط حزامه من جديد ثم انطلق يجري •

والتفت اليه « الصعلوك » لما اقترب منه يسأله : هل وجدتها •• ؟ وأجابه وهو ما زال يركض : لا •• ثم توقف قليلا وهو يسأله : هل شاهدت البغل •• ؟

ـ البغل • ؟ أي بغل •• ؟ !

ولما بدا له انه لا يعرف شيئا عن البغل انطلق يجرى مما جعل « الصعلوك » يشك فى سلامة عقله •• اما هو فقد تيقن من ان يومه هذا لن يتم بسلام ، فمن المؤكد انه سيقف امام رب العمل موقفا لا يحسد عليه ، ولهذا أسرع فى جريه اكثر من ذي قبل ، وهو يغري نفسه بأنه سيدركه قبل ورشة العمل ، غير ان أنفاسه تلاحقت وأصابه العياء الشيء الذى جعل من سرعته تنتقص شيئا فشيئا إلى ان اصبح يمشى الهُوَيْنَا كسابق عهده عند ما يكون بجانب البغل •

ولم يدر ما اذا كان معه حق فى أن يلعن اللحظة التى رأى فيها نصف الورقة المالية ، فمن الممكن أنها كانت ستدخل جديدا على حياته الرتيبة ، غير ان ما سيجره عليه تأخره عن البغل من مشاكل دفعه الى أن معه حقا فى أن يلعن أيضا سوء حظه الذى أخّره عن عمله •• ولذا عاد يركض عله يصل فى آن واحد مع البغل •• لكن أمله خاب عند ما شاهد ، عن بعد ، ربَّ العمل وقد وقف بباب الورشة ينتظره وقد وضع يديه خلف ظهره فى غطرسة وتعجرف ••

واقترب منه وهو يبحث عن كلام يصلح لان يبرر به موقفه ، غير انه لم يجد احسن من ان يخفض رأسه ليتلقى سيلا من السب والشتم •• وخطر بباله وهو يستمع الى ذلك أن ينظر الى الداخل • فبدا له البغل مربوطا الى العربة ، وهو يحرك أذنيه، ومن غير سابق تفكير آخذ يقترب من البغل ليفكه عن العربة • غير أن رب العمل وقف أمامه صائحا مزمجرا :

— آلا تسمع ما أقول •• انك مفصول عن عملك •• هيا

— ولكن •• البغل

— هيا ••اغرب عن وجهى أيها البغل

— « حسنا » قالها وهو يلتفت نحو البغل الذى كان يبعد عنه الذباب بذيله •• ثم قال فى داخله ، وهو ينصرف : « لقد تخليت عنى •• ايها البغل » •

وفى طريقه القى نظرة عجلى على المكان الذى وجد فيه نصف ألف فرنك ، ثم تذكر أن السوط ما زال بيده ، فحركه فى الهواء عدة مرات ، يحدث به أصواتا متتابعة ، ومضى وهو ينظر الى البحر •

1963 — 1 — 7

المسخوط

يضرب الارض •• الارض التى يفتتات منها يكيل لهـا الضربات بمعوله،يحفرها فتتطاير من حوله الاتربة الوسخـة •• تستقر فوق عرقه •• عرقه الذى له رائحة شبيهة برائحة الارض•• الشمس تحرق عظامه العجاف ، وتحرقه الارض فلا يستطيع أن يقف فوقها برجليه الحافيتين ••

لن يكف عن الحفر حتى ولو طلبوا منه ذلك اشفاقا •• لا بد أن يُظهر لهم بأنه جاد فى عمله •• وأنه اذا ما أعطى وعداً يفِي به•• وأنه لا يهمه شىء أكثر مما يهمه حفـر الارض •• هـذه الارض القاسية لا بد من ضربها علّها تِلين ، علّها تنفتح امامه كنز قارون ••

لم يكن فى سالف الزمـان والعصر والاوان الا قـارون وحيد •• كان فقيرا فوجد الكنز •• أما هو فلن يجد الكنز وسيظل فقيرا •• ولكنه مع ذلك يشتغل •• ليضمن لنفسه الكنز ، الكنـز السرمدى الذى لن يتيه معه والذى لن يغويه ، مـا دام يجـدّ فى عمله •• ما دام لا يعرف الغش ••

العرق البارد يتفجر من بين التجاعيد التى لـن تملأهـا ذرات التراب ، مهما تراكمت لن يسمح لنفسه بأن يمر يده علـى جبهته ، هو لا يعرف التعب ، وهم لا يعرفون عنه أنه يستريح •• انه لا يلتفت الى خلفه،فالارض التى حفرها مع بزوغ هذا الفجر لا يمكن أن يحفرها أحد آخر غيره ••

رفاقه فى العمل يسمونه «المسخوط»،أظهروا لـه مـرارا

اهتمامهم به ، ونصحوه بألا يحمل نفسه أكثر مما تطيق ، وأنه مهما جد فى عمله لن يضيف اليه رب العمل أكثر من أجرته ، وأنه لن يكسب شيئا ما عدا « قلة الصحة .. » أظهروا له مرارا أنه على خطأ ، وأن الجميع يعلم أنه لا يجدّ فى عمله الا ليضمن عمل الغد .. وهو خاطىء فى ذلك لان رب العمل اذا لم يكن لديه عمل لن يشغله . ولكنه لم يكن يسمع لنصحهم ، بل لم يكن يسمح لنفسه حتى بالرد عليهم ، لانه يعتبر الكلام وقت العمل إضاعة للوقت .

سموه « المسخوط » ومن يومها لم يقتربوا منه ، ولم يعملوا بجانبه ، وهذا ما جعله يعمل أكثر ، ويهتم بضرب الارض ، وبضربها فقط ..

الضربات المتوالية لن تخمد غيظه .. هذه الضربات لو كانت فوق رؤوس أصحاب رؤوس المال ، لما بقي منهم واحد .. ولكنها للاسف لا تتلقاها الا أُمّنا الارض .. خذي هذه أيضا وهذه .. وهذه .. أمنا او تستطيع ان تبدي رأيا .. رغبة .. حتى احساساً طفيفا بهذه الضربات لتغيّر مجرى حياته .. ولكنها صامتة تُجازيه ، بدل المعول الحديدى،خضراوات .. طماطم جزرا .. بطاطس ..

وهو .. يعطيهم «صحته» .. ، عرقه .. رائحته .. عظامه العجاف .. جديته من غير أن يتلقى قرشا واحدا فوق أجرته .. أجرته التى هي هي منذ عشرين سنة .. منذ أن كان ابنا .. الى أن أصبح أبا .. والارض هى الارض .. لا تني .. لا تبخل .. كلما زادها ضربا زادتهم خصبا .. خذي .. خذي .. زديهم .. زديهم ..

التراب يتطاير من حوله .. جرار قائم بذاته ، فأرض

الحقل ينبغي بعد عملية حفر البطاطس أن تقلب .. المعول يرتفع الى السماء يحجب عنه بين الفينة والاخرى الشمس .. ويرطب شيئا ما من شدة الحر .. كمروحة فى يد السيد .

المعول من هولاندا .. من أرض بعيدة .. من أرض أبقارها كبيرة.. هو يفتخر بأنه لا يشتغل الا بمعول منهولاندا.. لم ير من قبل أى هولاندى ، ولكنه يخمن أنهم أناس ضخام الجثة كأبقارهم الحلوب .. معاولنا صغيرة وأبقارنا عجاف .. وتربتنا يابسة .. لا بد من عمل .. لا بد من جد لنستطيع فيما بعد أن نصبح مثل الهولانديين نصنع المعاول الكبيرة ، وننتج الابقار الحلوب ..

أحد أقربائه قال له ذات يوم : « أنت حمار السانية .. يدور وهو مغمض العينين .. انتبه الى نفسك .. والى من حولك .. ارفع عن عينيك الغماضتين . ! » ولم يجبه بشيء بل فكر : «انهم يعتبرون الراحة رأسمال المسكين .. وأنا. وأنا ..» لم يتمم كلامه .. يومها أدرك أنه لا يملك أي رأسمال .. بل يصنعه للآخرين .. ومع ذلك ظل على عادته ..

الارض المحرقة ان تتركه يقف أكثر من دقيقة .. وهو لن يتركها تستريح أكثر من دقيقة .. المعول ينزل وهو يتقدم .. واحدة بأخرى .. غير أنه لن يستكين ، لانه اتفق مع رب العمل على أن يحفر كل هذه المسافة التى تتطلب عمل يومين فى يوم واحد ليسمح له بالخروج مبكرا .. فزوجته الآن فى مخاض .. تتألم .. تنتظر مولودا .. يلزم أن ينتهي مبكرا ليذهب اليها قبل المساء .. علّه يرى ــ اذا ما هى وضعت ــ مولوده الجديد ..

لم يقل له رب العمل اذهب من الآن .. فأنت لك عذر ..

لم يضع يده فى جيبه ويدفع له مقابل عمل الغد •• بل أدار ظهره له، وأدرك هو أنه موافق ، وأن عليه أن يحفر ••

خذى أيتها الام الحنون •• المعول يرتفع لينزل فى قـــوة على الارض •• الصوت يغدو له ايقاع •• واحدة بأخـــرى •• الارض تحرق •• المعول يرتفع •• خطوة الى الامام •• المعول فى السماء •• المروحة فى يد السيد •• الارض••التراب •• العرق الشمس •• الارض ••

دارت به الدنيا •• ترنح •• لم يسمح لنفسه بأن يمسح العرق عن جبهته •• بل فى هذه المرة •• لم يستطع •• تهالـــك على "الهـــولانـــديـــة" ••

حمله اثنان من رفاق العمل وأحدهما يقول للآخر : «أغمي على المسكين •• ضربة شمس أخذها المسخوط •• »

1965 — 6 — 9

طيور البحر

(الى سكان ناحية الغـرب
الذين نكبتهم الفيضانات ..)

أدركت أن ما سمعته البارحة كله صدق ، فالكيس الــذي تحمله على ظهرها مملوء تماما ، ولذا شعرت ببعض الانشراح •• ففي هذا المساء يمكنها ان تلتحق بالمتسولين في زقاق (الشلالين) بسلا ، وتبيع كل الكيس ، وبذلك تحصل على بعض الدراهم تريحها من التسول لمدة يومين على الاقل ••

قطع الخبز المختلفة الالوان أخذت تنتظم في ذهنها على شكل أكوام صغيرة ، ثمن الكومة الواحدة ريال ، فاذا ما كانت هناك ثلاثون كومة ، فانها ستحصل على ثلاثين ريالا ، وهذا ما لم يقع طيلة الايام العشرة التى قضتها في التسول بمدينة سلا •• حقا ، في العاصمة يمكن للمرء ، إذا ما جدّ ، في التسول أن تتجمع لديــه أكوام عديدة من الخبز •• وأسرعت في مشيها قليلا حتى يتسنى لها أن تحتل مكانها بين بقية المتسولين ••

وقبل أن تصل القنطرة ألقت نظرة خاطفة الى الــوادى ، ثم التفتت الى الجهة اليمنى ، محاولة أن تبعد عن ذهنها مــا قــد يثيره منظر الماء في داخلها ، غير أنها لم تفلح ، فسلسلة الاحداث التى مرت بها لا تزال متماسكة الحلقات ، تسلّمها حادثة لأخرى الى لحظتها الحاضرة :

زوجها المريض الذى كان على فراش الموت ، يلفظ أنفاسه الاخيرة جعلها تفكر أنها أصبحت وحيدة •••

الجيران من حولها كانت مياه الفيضانات تفصلها عنهم ••

فكّرت في وسيلة لتحتفظ بزوجها الى أن تهـدأ الميـاه، فتطلب منهم أن يساعدوها على دفنه ..
خشيت أن تدخل المياه خيمتها المتداعية فتسحب الزوج فيما تسحبه ، فأسرعت الى ربط رجليه بالوتد الذى كان يمنـع حمارهم من الفرار ...
غطت المياه قدميها ..
دارت المياه فى داخل الخيمة ...
الأواني القليلة التي تستعملها دارت مع المياه ، ثم أخذت تغادر الخيمة ..
الماء العنيد كان يعبث ..
فكّـرت فى الفـرار ..
رفعت ملابسها الى أعلى وركضت خارج الخيمة ..
ركضت بعيدا .. بعيدا ..
وعند ما انسحبت المياه ، عادت الى خيمتها ، فلم تجـد زوجها .. ولم تجد الحمار .. ولم تجد الخيمة .. لم تجد شيئا.. فلقد جرفت المياه كل شىء .. جلست على الارض ، وتيقّنت من أنها أصبحت وحيدة ، لا تملك شيئا .. وتساءلت يومهـا مـاذا يستطيع المرء أن يصنع بعد أن يبقى وحيدا .. ؟ واكتنفها هـمٌّ شديد لما تخيلت عمق الهوة التى تُطل عليها : انها امرأة ، وهـذا وحده يخيفها فى عالم كله رجال .. ثم انطلقت تبكى ، فليس فـى استطاعتها غير البكاء .. ولعل ذلك يريح نفسها بعض الشىء ..
كانت وهى تبكى تنظر الى السماء من خـلال دموعهـا الغزيرة ، وكأنها تطلب منها أن تجد لها مخرجا ، غير أنهـا ما لبثت أن أطرقت الى الارض تفكر .. ثم قامت تسير بعد أن خطر ببالها

ان تتبع المـــاء ••

انتقلت من مكان الى آخر ، من قرية لأخرى ، من مدينـــة لمدينة •• ضائعة • متسولة •• تتبع الماء ••

وفى « الشلاّلين » وجدت عالمـــا جـــديـــدا •• بائعيـــن ومشترين •• أكواما صغيرة من قطع الخبز •• ومن قطع السكـــر الوسخة •• ومن الحساء فى علب المصبرات •• سوقـــا يعـــج بالمتسولين كل مساء •• وفى هذا المكان سمعت أمس أن المرء عند ما يقصد « العاصمة » يعود بكثير من الخبـــز •• حقـــا ، ان الكيس الذى تحمله وراء ظهرها يثبت أن ما قالوا صدقا •• غير أنها تشعر بألم فى حلقها •• فهى من قبل لم تكن فى حاجة الـــى استعماله طيلة النهار ، ولكنها الآن مضطرة لكى يدرك النـــاس أن بها جوعا ، من أن تصيح بأعلى صوتها •• فهى وان لم تكن تبحث عن منظومة طويلة تذكر فيها الوالدين والاولياء والصالحين ؛ بل تكتفي بأن تقول ببساطة انها محتاجة الى مساعدة ، وترددها أمام كل دكان ، وأمام كل باب ، جعلها تحرز على كثير من الصدقـــات حتى أنه خطر ببالها أنه من الممكن أن يغار منها زملاؤها المتسولون عند ما يرون أمامها أكواما عديدة من الخبز •••

ولكن المتسولين قد لا يهتمون بذلك،بل يعترفون فيما بينهم وبين أنفسهم بأن المرء عند ما يشرع فى التسول يصادفه النجاح الباهر،ولكنه يفقده تدريجيا مع طول الزمن •• ولذا فإن الشىء الذى ستثيره فى أنفسهم أكوام الخبز العديدة ليس الغيرة ، ولكنه على الاصح ذكرى أول عهدهم بالتسول ••

وفى القنطرة الكبيرة التى تربط المدينة الصغيرة بالعاصمة؛ شاهدت الماء يجرى من تحتها •• فوقفت قليلا ترقبه فى شرود •

وما لبثت أن مرت بذهنها السلسلة المتصلة الحلقات فى أسرع من البرق •• ثم استلفت نظرها طفل صغير ، يلقي بقطع الخبز الـــى طيور البحر •• أستبد بها المنظر ، فوقفت تتتبع حركات الطيور التى كانت تحدث أصواتا غريبة وهى تتلقف الخبز قبل أن يصل الى الماء •• والطفل الصغير منشرحا مما يصنع ، غير أن طيوره التى كانت تحوم حوله ، أخذت تبتعد عنه لما انتهى ما يحمله معه من خبـــز ••

رقت لحاله عند ما رأته ينظر الى الطيور فى اكتئاب وأخرجت من كيسها خبزا سلمته اليه ، فنظر اليها ثم أشاح عنها بوجهــه ومضى • نظرت اليه فى حسرة ، ثم ما لبثت أن أخذت ترمى بخبزها الى الطيور •• وسرعان ما حلّقت حولها عشرات الطيور استلفتت نظر الطفل الصغير فرجع يقترب منها ••

كانت وهى تلقي بالخبز الى الوادي ، والطيور من حولها تنادى الطيور ، تشعر بأنها تسدي معونة لهاته المخلوقـــات العجيبة الجائعة ، التى تقضى طيلة يومها فى وجوم •• وخيل إليها أنها هي الأخرى تتسول •• فصوتها يكاد يصيبيــه العيـــاء •• فشرعت تلقي ذات اليمين وذات الشمال بالقطع المختلفة الالوان•• وكأنها تريد أن تكف عن الصياح وأن تأكل حتى الشبع من غير أن تطلي مساعدة ••

واقترب منها الطفل وهو يبتسم ،ولما سلّمته بعض قطــع الخبز ، تقبلها ، هذه المرة ، وهو يضحك ، ثم شرعا معا يرميـــان بالخبز الى الطيور وهما يبتسمان ••

الثلاثون كومة على حسب تقديرها تنقص مرة تلو أخرى، أمست عشرين ، ثم عشرة ، ثم خمسة،ثم ثلاثة أكوام ، فكرت في

أن تحتفظ بشيء لعشائها ، ولكنها لما شاهدت أن الطيور تغطي سماء القنطرة ، وأنها أشد منها جوعا فضلت بأن تؤثرها على نفسها •• فاقتسمت مع الطفل ما بقي فى قعر الكيس من خبز، ثم أخذا يلقيان به الى الطيور وهما يضحكان •

يونيه — 1963

8

طبال ..

ـ دعني •• أرجوك •• اتركني وشأني ••
ـ ولكنك لم تدر ماذا أحمل إليك من أخبار •• !
ـ أعــلــم ••
ـ ماذا تعلم •• ؟ لا تكن متشائماً •• اتركني أخبرك اولاً ، ثم لك أن تتصرف كما تريد ••

وانحنى عليه صاحبه يحدثه بهمس ، سرعان مـــا أخـــذ ينصت اليه باهتمام بالغ ، نمت عنه أسارير وجهه التى انبسطت تمــامــا ••

وتركه صاحبه ، بعد أن زفّ إليه الخبر ، في حالة شرود ، لم تخرجه منها الا حركات السير التى اشتدت بالقرب منه ، فأخذ يسير ببطء ، وهو ينقل نظراته فى وجوه أهل مدينتــه •• هـــذه الوجوه التى ضرب، دونها حجابا يعرفها جميعا ، فهو قد شاركها أفراحها ، ومن أفراحها كان يكسب قوته •• حتى أنه كان راضيا عن عمله ، وهو يردد : « أنا لا آخذ أجرى الا عند مـــا يكـــون الآخرون فى انشراح •• فى بهجة •• » هذه الوجوه التى لم يكن ليلتقي بها الا مشرقة ، عاد ينظر اليها ، هذا المساء ، الواحدة تلو الاخرى وهى تمر بالقرب منه •• تنتظر اليه فى شيء من الحزن ، تشاركه آلامه التى تحدثت عنها كل المدينة •• « اذ مـــاذا كـــان يعني طبال من غير زمار •• » ؟ !

فى الواقع أن موت زميله الزمار كان له وقع شديد عليه ،

حتى أنه ضرب دون التطبيل حجابا ، وأقسم آلا ينقر طبلا بعد اليوم •• بل تعدى ذلك الى أن انعزل عن أهل مدينته ، وأخلد للوحدة المريرة وأقام بينه وبينهم ستاراً كثيفاً من الحزن ، كان يتجلى عند ما يمرّ بهم مطأطأ الرأس من غير أن يلقى عليهم تحياته الطويلة •• وهو ان لم يكن أحد يأخذ عليه هذا التصرف مأخذ الحنق ، لأنهم كانوا يدركون ما خلفه موت زميله فى نفسه من أغوار سحيقة لن يملأها أي زمار آخر ، فقد اعتبره البعض نوعا من اليأس لا مبرر له •

واقترح عليه غير ما واحد أن يعمل مع زمارين آخرين ولكنه كان يثور لذلك ، فهو ما تنازل يوما ليعتلوا قدره ، ويحدثوه بشىء من ذلك : « اذ كيف يمكن لطبال رافق من زمن طويل أمهر زمار بالمدينة أن يعمل مع زمارين ما زالوا فى طور التمرين •• لا •• ان هذا شىء لا يمكن أن يقبله بأي وجه من الوجوه •• سيظل وحيدا •• ولن يشغل طبله بعد اليوم •• » وهكذا لم تعد المدينة تسمع لطبله صوتا ، ولم تكن تراه الا لماما •• فقد ابتعد عن الاماكن المأهولة ، واكتفى بعزلته يجترُّ فيها أيام مجده ، تلك الايام التى كان يعمل فيها برفقة زميله الراحل ••

ـ « ولكنك لم تدر ماذا أحمل اليك من أخبار »

وأخذ يسترجع ما حدّثه به صاحبه هذا المساء عند ما اعترض طريقه فى الشارع •• وكيف شعر بهدوء منعش ينفذ الى نفسه جعله يفتح عينيه من جديد على أهل مدينته الذين لم يكن لهم ذنب فيما حدث له •• حقا ، انه ما زال يضمر بعض المآخذ ، اذ أنهم لم يكونوا يقدرون زميله حق قدره ، ولكنهم وان كانوا يذكرونه كلما ذكروا احدى الولائم والحفلات ، فان هذا وحده ،

لا يكفى لتقدير فنان ماهر كزميله الراحل ، ولكنه مع ذلك لا ينتقص من قيمته ما دام يعلم هو أن الفنانين فى مثل مهارته قليلون ٠٠ ولا أحق من تقييم الفنانين من فنانين آخرين ٠ وأهل مدينته ليسوا كلهم على مستوى يؤهلهم لتقييمه ٠٠ لذا فهو ان أضمر لهم بعض المآخذ فان التبريرات متوفرة لكل متسامح ، وليكن هو الآخـــر متسامحا ويقبل تبريراتهم ولو كانت واهية ٠

ــ وعليكــم الســلام

لأول مرة يردّ على من يسلّم عليه ٠٠ وابتسم ابتسامـــة رقيقة ، وهو يلاحظ التغير الذى طرأ عليه ٠٠ لقد عاد الـــى سالف عهده ، أصبح منشرحا بعض الشىء ٠٠ حتى أنـــه وهو يتلـــذذ بهذه اللحظات التى كاد ينساها تماما ، مسكه أحد الصبية من ثيابه كأنه يريد أن يقول له شيئا ٠٠ ولكن أمه جرته من يده مزمجرة :

ــ « ألا تستحي ٠٠ اترك الرجل المسكين لحاله ٠٠ »

ولكنه وقف ينظر الى الصبي الذى يبتسم له ٠٠ وقـــال لـــوالدتـــه :

ــ « اتركيه ٠٠ اتركيه يمزح مع الطبال،لا ضير على طبال المدينة من أن يمزح مع أهل مدينته ٠٠ انه يسره أن تكون كـــل مدينة فى انشراح ٠٠ لا تنسى أنه من ذلك يكسب قوته ٠٠ » ٠

وتطلعت اليه المرأة فى ذهول ، وقرأ هو فى عينيهـــا أنـــه تغيّر،وأنه خرج من أطواره الحزينة ، وأنه عاد كما كان منشرحا ٠٠ وغمره فرح جارف ٠ لم يستطع أن يكبته ، فرفع الصبيّ بين يديه، يلاعبه ويدغدغه ٠٠ واستلمت الام ابنها وهى تقول :

ــ لا شك يا سيدى أننا سنسمع صوت طبلك من جديد ٠٠

وابتسم لها قليلا ابتسامة غامضة ، ولكنها عند ما أضافت :

– لقد أنساك عامل الزمن رفيقك ••

ابتلع ريقه ، وانسحب من أمامها لا يلوي علــى شيء •• واعتملت فى داخله عدة ذكريات •• عادت معها حجب الحزن لتقيمه داخلها ، لا ينظر الى أحد ، ولا يحيى من يبدأه بالتحية •• ووبخ نفسه : ما كان من حقه أن ينسى زميله هكذا •• وأن يعــود الــى الحياة العادية وكأن أي شيء لم يقع •• ولكن الذنب فى ذلك يرجع الى صاحبه ، الذى حدثه هذا المساء •• فأخذ يكيل له اللعنات ، ولم ينس أن يحنق عليه أيما حنق ، حتى أن جميع التبريرات التي تراقصت أمام بصره •• لم تثنه على أن يحنق على نفسه أيضــا لانجرافها مع الاكاذيب •• انهم دائما ، يحدثونه بذلك ، ويطلبون منه أن يعود الى سالف عهده ، وكأنه من الواجب أن يستمر فــي حزنه على زميله ، وألا ينساه بمثل هذه السرعة التي نسيه بهــا الآخــرون •

– عفوا •• معــذرة

قالها للرجل الذى دهمه • •

– ولكن ألا تنظر أمامك ؟

– عــفــوا ••

وتطلع اليه الرجل يتبيّنه •• ثم ما لبث أن صاح فيه :

– طبالنا الحزين •• لا عليك •• ألا تعلم النبأ الجديد ••

– أعلــــم ••

– إذن •• ؟

ولم يجب الطبال بشيء ، بل استأنف طريقه ، وهو يقول فى نفسه : « كلهم يتآمرون علي •• » كان لا يزال حانقا •• ولكنه ما لبث أن أخذ يمعن التفكير فيما سمعه •• وتوقف قليلا فى طريقه،

والتفت الى ورائه ، ثم استأنف سيره « لا شك أن ما حدثنى بــه صدق •• إنهم جميعا يقولون ذلك •• » ولكن ذكرى زميله الراحل عادت تقيم حاجزا بينه وبين النتائج التى يريد أن يصل اليها ••

ودخل بيته ، وقفله من ورائه ، وارتمى على فراشه ينظر الى السقف وهو يستسلم الى الديدان التى كانت تغلي فى دماغه ، لقد كانت فى صراع قوي •• ولم ينس أن يتيح لكل منها أن تبدي وجهات نظرها ، حتى اذا ما انتهت كلها ، وغلب منها مــا غلب ، وانهزم منها ما انهزم ، قام الى طبله ، وأمرّ يده على جلــده فــى خشــوع ••

وفى جوف الليل سمع جيرانه دقاتٍ رزينةً على الطبــل ، فاستبشروا خيراً •• لقد عاد الطبال الى العمل ••

وتذكر هو الشيء الذى أخبره به صاحبه فى هذا المساء : « هناك شاب أخذ يحسن العزف على المزمار •• سيكون له شأن عظيم •• ستعمل معه ان أحببت •• » وابتسم ابتسامة فيها معنى وهو يتطلع الى المستقبل ، مستقبله مع هذا الشــاب ذى الشأن العظيم •• وردد فى داخله : « نعم •• سأعمل معه •• سأعمــل معه » ونام بالقرب من طبله •• وهو يحلم بالغد القريب •

مـــارس – 1964

على المشنقة ..

(الى صديقي الاخ
عبد المجيد مزيان
ابن الجزائر الدامية)

دار حول الجثة التى كانت تتلاعب بها رياح المساء ، قبل أن يجلس على صخرة بالقرب من المشنقة ، ويضع على فخذيـه بندقيته الرشاشة ..

انه لحد الساعة، لم يدر أية ظروف هاته التى تأخذ الانسان بعيدا عن المجال الذى يحدده لنفسه .. ولكن ـ فيما يظهـر ـ ان هاته الظروف فوق طاقته ، وأنه على كل حال لم يحسب لها أي حساب ، لذا أخذ يفكر في أمره ، والمصير الذى آل إليه .. لقد كان يوقن بأنه لم يخلق لأي شيء آخر سوى لدروسه الطبيـّة ، حيث يغدو بعد تحصيلها طبيبا ماهرا .. ولم يكن يخطر بباله أن يرتدي هذا الزي العسكرى ، ويطوّح به بعيدا عن أهله وبلاده إلى هـذه القرية الصغيرة من بلاد الجزائر ، حيث الآن يحرس هذه الجثة المعلقة على خشبة المشنقة .

انه هنا من أجل أطماع الآخرين .. انها فئة ظالمـة .. استعمارية .. تحتكر لنفسها كل شيء .. وتسخّر فى خدمتها من تشاء .. ولكن هل فى استطاعته ان يفعل شيئا آخر .. ؟ وقال فى نفسه : « ان المرء كثيرا ما يفضل العزلة عن الآخرين .. ويعتبر نفسه بعيدا عنهم .. وله عالمه الخاص يعيش فيه .. حتى اذا ما اقتحمته المصائب ، أخذ يفكر فى حيلة تنجيه .. » وأردف « لقد كان من الممكن ألا أكون هنا بجانب هذه الجثة لو كنـا ـ نحـن

الطلاب ــ أعلناها حربا شعواء فى فرنسا ، لما كنا نصل إلى هذا الدرك .. الحرب من أجل الآخرين . . » ونظر حوله فى هلع ، ثم قال فى ذات نفسه : « ماذا أستفيد من جلستى هذه ، أحرس ميتا بريئا .. ؟ ثم انه ليس من المستبعد أن أموت هنا بجانبه .. نعم، ربما يقبل أهله وذووه ، فينتقمون له .. ولهم الحق فى ذلك .. » وتساءل : « ولكن ممن ينتقمون ؟ » وأجاب : « طبعا مني أنا .. أنا ؟ وماذا صنعت أنا ؟ » وتنهّد « نعم لقد قتلته .. ولا أريد أن أقول إننى شنقته ، فدورى فى هذه العملية لا يتعدى الحراسة .. إنني أحرسه فقط .. ولكننى قتلته ، لأننى تخليت عن واجبي كانسان .. كان يمكننى ان أصيح بأعلى صوتى:« إننى أحب السلام .. إننى أريد ان يعيش الآخرون أحرارا فى بلادهم .. » لكنه رجع الى نفسه يقول : «اما الآن فكل شىء بيدهم ..» ورفع بصره الى جثة الجزائرى الشاب ، وهو يحاول أن يجعل من نفسه انسانا لا يشعر بأى شفقة ، وان يبعد عن قلبه ــ كل ما أمكن ــ ما يسمى بالرحمة والعطف .. لكنه أخفق فى ذلك ايما اخفاق .. فلقد انحدرت من عينيه قطرات من الدمع .

وقال فى نفسه يبرر ذلك : « اننى انسان » ولكن هذا التعليل لم يرقه كثيرا لذا عاد يسأل نفسه : « ولماذا تنزل الدموع من عيني هكذا ؟ » وأجاب باقتضاب : «اننى تذكرت خطيبتى ..» بل « تذكرت أمي وأبي .. » بل « تذكرت مدينتى .. » بل « اصدقائى واساتذتى .. » بل « هى انانيتى » وعندها وقف « ما دخل الانانية هنا ؟ » واجابته نفسه فى استهزاء : « إنك تخشى ان يشنقوك أنت الآخر .. لذا بكيت .. فانت أنانى تحبّ نفسك فقط .. أما هذا الشاب فلا يهمك أمره .. » واذعن لهذا

الراي ، « صحيح •• اننى لا احب إلا نفسي •• » قالهـا وهـو يخفض رأسه فى ذلـة ••

ثم دار حول الجثة الهامدة ، وهو ينظـر اليها : « انهـا تستهزئ منى » قال فى نفسه ذلك وأردف : « لاننى لا استطيع أن أنظر اليها كثيرا •• ان عينيه الجاحظتين •• تثير في نفسـي الاشمئزاز •• ان شعر رأسه المبعثر ، يجعلنى أقرف من شعـر رأسى •• ومن شعر جميع الناس •• حتـى شعـر خطيبتـي الاشقر •• » وسمع حركة فجائية ، ارتعدت لها فرائصه •• وَقَفَ لها شعر رأسه وقال فى نفسه : « ان شعرى أخذ ينتظم •• إنـه أحس بالخطر •• إنهم عما قريب سيصلون إلي •• وسيشنقوننى مكانه•• » لكنه عاد الى نفسه فى اعياء . فانفاسه متلاحقة •• ودقات قلبه توشك ان تسمع من بعيد •• « لا شيء هناك » قالها ثم أخذ يصفر فى غير اكتراث •• كأن لا شيء يهمه مطلقا •• غير انه شعر بخطوات تقترب ، فتراجع الى الوراء وهو يحـاول أن يتبيّـن شيئا •• لكنه احس بشيء وراء ظهره ، مما جعله يلقي سلاحـه بعيدا ، ويرفع يديه الى فوق •• وقال فى نفسه وهـو يرتعد : « هذا دوري » وانتظر ان يسمع أمراً لينفذه بسرعة •• لكنه لم يسمع أي شيء •• وانتظر •• وانتظر طويلا •• وهو يعلل هذا التأخير بشتى العلل •• واخيرا التفت بكل هدوء نحو يمينه فاذا به أمام أقدام الجثة •• نعم إن أقدام الشاب المعلق هـي التـى ظنها فوهة بندقية •• وسرعان ما وضع يديه الى أسفل •• وهو ينظر الى حذاء الجزائرى الشاب ، مجترا ريقه ليبتلعه من جديد •• ثم انحنى يتناول بندقيته ، فى شيء من الانكسار والعياء ••

لقد توترت أعصابه كثيرا ، ثم اذا بها « تتقطع » فجأة ••

ويفقد بالتالى رجولته تماما •• إنه الآ نأمام حـذاء الجزائـرى الشاب كلا شيء •• وقال فى نفسه يؤكد ذلك : « كيف يمكننـى أن أغدو إنسانا له كرامته ؟ اننى ـ اذا ما ظللت على قيد الحياة ـ لا يمكن ان اعتبر نفسى انسانا •• إننى كومة من القش •• إننى تحطمت ••» قال ذلك وهو يحملق فى الجثة المعلقة •• ومن غير شعور كان يتجه بيده الى جيب سرواله الصغير •• وقال فى نفسه: « من الممكن جدا انهم لم يبحثوا فى هذا المكان الصغير •• لانـه لا يسع أي سلاح ! » ثم ادخل يده واخرج ورقة مكتوبة بخـط عربى •• نظر اليها كثيرا عله يحل رموزها فما اهتدى •• واخيرا قال فى ذات نفسه:«ربما هى رسالة •• ولكن لماذا يحتفظ بها •• ؟ انها لا شك مهمة •• ان تكون رسالة غرامية مثلا •• ولمـاذا لا تكون رسالة خطيرة ؟ تحتوى على أسرار من جيش التحرير •• من الممكن جدا أن تكون كذلك •• اذن لا بد من أن احتفظ بها لأريها لهم •• فالسر الذي شنق من أجله يمكن أن تفشيه هذه الورقة •• نعم سأطلعهم عليها ، حتى يهتدوا الى الثـوار •• ويخمـدوا أنفاسهم •• فنستريح منهم •• ومن ثورتهم •• ونعود الى بلادنا آمنين •• آه ! ما أحلى باريس ! » وأعاد النظر الى الورقة التى بين يديه ، وحرك رأسه وهو يبتسم قائلا : « انها مفتاح جميع المشاكل •• ! » لكنه عند ما نظر الى حذاء الجزائرى الشاب ، ثم تسلق ببصره الى وجهه ، حيث عينيه الجاحظتين ، ولسانه المدلى ، أخذ ينكمش على نفسه شيئا فشيئا ، الى ان اصبـح كومـة من القش لا تساوي شيئاً •• ان لسان الشاب وهو بين اسنانه فـى شكل فظيع مريع جعله يعتبر نفسه كومة من القش ، اذا ما هـو حاول أن يصنع شيئا ضد الجزائر •• وقال فى نفسه : « اننـى

وغد عند ما فكرت فى مساعدة أُولئك الاستعماريين •• إننــي قذر •• إننى خسيس •• » واقترب من الشاب الجزائرى حيث أخذ ينفض عن حذائه بعض الغبار •• وهو يقول : « سامحنى » ثم أعاد الى الجيب الصغير رسالته بكل وقار •• وقال فى نفسه : « لقد كانت له مشاريعه يريد تنفيذها ••• لكنهم اغتصبوا حياته•• ويقينى انهم تجنوا عليه •• انه بريء •• انه يحب لبلاده الخير•• كما أحب ذلك لبلادي •• » ثم تساءل : « ولماذا لم يدفنــوه ؟ » وأجاب : « طبعا ، لانهم بذلك يريدون ان يحدثوا الفزع فى قلوب سكان هذه القرية •• حتى يفشـــوا اسرار جيس التحريــر •• والمقــاوميــن •• »

ونظر بعيدا وهو يتعجب : « ان الشمس قد غربت •• ولم يقبل بعد أي جندى •• » وارتجف قليلا وهو يدور حول المشنقة « انه لا يمكننى أن أحرسه أكثر من هذه المدة •• يا ليت أهلــى يعلمون ما أقاسيه هنا من ويلات •• ولكنهم هــم الآخــرون لا لا يستطيعون دفع اى شىء غنى •• اننا كلنا مشنوقون •• كلنا على المشنقة •• » ورفع رأسه الى الجزائرى الشاب ينظر اليه •• ولاول مرة لم يشعر فيها بالاشمئزاز •• وقال فى نفسه : « ولِمَ ذلك ؟ » ورد على سؤاله بانشراح : « طبعا لاننى اهتديت اخيرا•• اننا نحن الاثنين على المشنقة •• هـوفوق وأنا تحت لكن كلنا على المشنقة •• » وربت على قدمي الجثة فى شفقة وحنــو •• « نعم اننى على المشنقة •• » قال ذلك وقطرات من الدمع تبلل خــديــه ••

ولم يستطع المسكين أن يواجه هذا المــوقف •• وكأن خللا أصاب عقله فجأة •• فارتعشت معه أوصالــه •• وارتجفت

9

شفتاه •• وما زال يتمتم : « اننى على المشنقة •• » واكتنفه ذهول أجلسه على الصخرة ، ووضع يديه على خديه ، يحملق في لا شيء •• ومرت برهة وهو على هذه الحال •• إلى أن استيقظ من ذهوله على وقع خطوات تقترب •• فانتصب واقفا ينظر حواليه لكنه تيقّن من أن الوهم قد استولى عليه ، وهو الذى يصور له كل ذلك ، وقال فى نفسه : « إنني بتّ شيئا آخر •• ولكننى مع ذلك لا زلت على المشنقة •• انهم يضعون الحبل فى أعناقنا حيثما حللنا •• وأينما اتجهنا •• اننا لا نستطيع دفع أي شيء لاننا جبناء •• » وتساءل : « من هم الجبناء ؟ » وأجاب : « جميع من يرضى منا بهذه الحرب ضد الجزائر ، هذه الارض التى لأهلها كل الحق فى أن يعيشوا أحرارا » واستهزأت نفسه منه : « أتقول ذلك عن انسانية ؟ •• أم عن خوف •• ؟ »وأجاب باعتزاز :« أقول ذلك عن انسانية خالصة •• لأننى عشت التجربة •• لأننى رأيت كل ذلك بعينى •• ولم أعد فى عزلة تامة عن أحداث الجزائر •• »

ولاول مرة أيضا يشعر فيها بهدوء وطمأنينة يلجان فؤاده، فتعود أنفاسه إلى سيرها الطبيعى •• وتستريح أعصابه المتوترة •• ولكنه مع ذلك كله كان على أحرّ من الجمر ليغادر المكان •• انه ينتظر من يخلفه حتى يبتعد عن هذا الجو الخانق ••

لقد اشتدت حلكة الليل كثيرا مما جعله لا يستبين أي شيء، وليريح أعصابه ، ويبعد عنه الخوف •• أخذ يقطع الارض جيئة وذهابافى الحركة العسكرية التى تعلمها أخيرا ••وبقي على هذه الحال الى أن أصابه التعب •• فجلس على الصخرة ، وهو يسب رؤساءه •• انه فى مثل هذا الوقت كان يرافق خطيبته الى بيتها بعد ان يقضيا وقتا بشاطىء نهر السين،او بجانب حديقة

اللوكسامبورغ •• ونسي نفسه تماما ، إنـــه الآن في باريس ••
حيث يستعرض أمامه أهله وأقرباءه وأصدقاءه ، واحدا واحدا ••
غير أنه عاد أخيراً إلى نفسه حيث الآن منفردا أمـــام أفكـــاره
المتشعبة ، وأمام مصيره القذر •• واضطرمت نار الثورة فى داخله
وهو يفرك يدا بيد •• وعلى حين بغتة سمع حركات متتالية تحدث
من ورائه •• مما جعل الدم يجمد فى عروقه •• وتصطك ركبتـــاه
فحاول القيام فما استطاع ، ولكن عند ما أحس بأن الحـــركـــة
مستمرة ••وبسرعة •• خطا خطوتين ثم فرّ هاربا الى الثكنة •••

1960 — 1 — 26

النار المحرمة

« حطبة أخرى ثم أعود •• » ومسك بفرع الشجرة يعالجه بين يديه ، وفيما هو يكسره اذا به يسمع حركة من ورائه جعلتـه يلتفت فى ذعـــر ••

نظراتهما التقت فتحجرت ، ثم ما لبث أن شعـــر بيديـه ترتخيان ، واذا بغصن الشجرة ينزلق من بينهما •• وتمتم ببضع كلمات قصيرة ، وهو يخفض بصره :

ــ « الفصل شتاء •• وليس لنا حطب •• ارحم ضعفـــي يـــا سيـــدى •• »

ــ « ولكن هذه سرقة •• » وتقدم نحو الكيس يدفعه بقدمه ذى الحذاء الاســـود ••

ــ « افرغ هذا الكيس •• »

وأفرغ الكيس من الحطب ، وهو يقول :

ــ « أنا رجل ذو عيال •• ارحم فقرى يا سيدى •• »

ــ « هيا سِرْ أمامى •• »

وارتمى على رجليه يحاول تقبيلهما: « سامحنى يا سيدي•• سامحنى يا سيدى •• »

وأزاحه بعصاه الغليظة وهو يقول :

ــ « لا حاجة بك الى أن تقبّل حذائي •• هيا •• تقدم •• »

ــ « ولكن الى أين يا ســـيدى ••؟»

وحدجه الرجل ذو الحذاء الاسود وهو يقول :

« ستـــرى •• »
وحمل كيسه ، ومشى وراءه وهو يقول :
« نعم •• نعم •• يا سيدى •• »
ولم يلق أية نظرة الى أشجار الغابة الكثيفة ، بل كان طيلة الوقت ينظر الى رجليه وهما تهتزان فى حركة يائسة ، توحيان بما يحسه فى داخله من خذلان •• إنه لا يدري أي شىء ينتظـــره في آخر المسير ، ولكن عليه أن يصحبه ولو لآخر بقعة فى العالم •• ولم يبحث عما اذا كان هو ملزماً بأن يصحبه ، ولكنه يستسلم له ، حتى ولو كان من حقه ألا يفعل • أصبح تافها ، لا قيمة له،يستطيع أى كان أن يأمره فيطيعه ، إن شعوره بالكرامة قد اختفى •• لقد ضبطه وهو يسرق •• يا له من وضيع •• !
من مدة وهو يقصد هذه الغابة يحتطب فيها ما يدفيء بـــه خيمته • ومن شدة اطمئنانه الى الاوقات المبكرة التى يحتطب فيها أصبحت الغابة وكأنها ملك له •• ولكن تأخره اليوم ، وشدة حرصه على أن يقتطع حطبة أخرى ، جعله يقف هذا الموقف الذى ما كان يعتقد أنه سيقفه فى يوم ما •• ولذا لعن فى داخله هذه الحطبـــة الاخيـــرة ••
حقا ، ان الكيس كان فى حاجة الى حَطبة أخرى ليمتلىء بَيْدَ أنه كان عليه أن يختفى فى الوقت الذى أشرقت فيه الشمس •• وتأخره هذا جرّ عليه أن يسير الى حيث جزاءه •• ولـــن يحمـــل الحطب لزوجه التى لا شك أنها ، الآن ، قد انتهت من جلب الماء ، وجلست ترضع طفلهما فى انتظار عودته ••
وخطر بباله أن يفرّ ، وسعل الرجل ذو الحذاء الاسود فى نفس اللحظة التى فكر فيها فى الفرار ، وكأنه ادرك ما يجـــول فى

خاطره •• ورفع هو عينيه الى أعالى الاشجار يتلافى نظراته التي لا شك تقع على قفاه • غير أن حمرة من الخجـل اعتلت أذنيـه فكشفت حقيقته ، وجعلته يعيد نظراته الى أسفـل ، الـى حيث رجلاه تهتزان فى يأس •• ولعلهما تعثرتا غير ما مرة « لقد أصبحتُ تافها •• اننى سارق •• نذل •• وضيع •• » وانهال على نفسه يؤنبها من غير هوادة ، ومن غير أن يلتمس لها أي عذر •• حتـى أطفاله الصغار الذين تخيلهم وهم يرتعدون من شـدة البـرد •• وزوجه أمام الموقد المنطفىء تنتظر عودته ، وحتى ألـم الجوع الذى أحس به يقطع أوصاله ، كل ذلك لم يثنه عن أن يلوم نفسه ، وينعتها بأقبح الاوصاف ••

وفجأة انطلق صوت من جانبهما ، سرعان ما أفزع الرجل ذا الحذاء الاسود الى أن كاد يقع على وجهه لولا أنه توقف ينظـر الى الطائر ، وهو يسترجع أنفاسه •

كان الطائر يبسط جناحيه للريح •• وسرعان ما غبطه هـو على جناحيه •• « لو كنت طائرا لاستطعت الفرار بكل سهولة •• » وابتسم اذ تخيّل نفسه طائراً كبيراً •• ثم انتقل يحدث نفسـه : « عند ما يبني الطير وكره على غصن من الاغصان هل يسكـن مكانا مسروقا •• ؟ وعند ما يشعر بالعطش ، فينزل الى الغديـر يشرب من مائه ، هل يقوم بسرقة •• ؟»وسرعان ما بدا له أنه فى إمكانه أن يعدّد عشرات الامثلة من هذا النوع لولا انه استعجـل النتيجة التالية : « اننى لم أسرق •• كما أن الطير لا يسرق •• » وعاد يبتسم مرة أخرى ، اذ تخيل نفسه طائرا لـه جناحان ••• وعند ما التفت الى الرجل ذي الحذاء الاسود عاد الى نفسه ووجد أنه لا يملك الا قدمين ذليلتين تأتمران بأوامر السيد وتقودانه إلى

حيث لا يريد •• الى السجن مثلا ••

وتخيل نفسه داخل السجن بعيداً عن أسرته ، وهو الذى لم يفكر مطلقا فى السرقة رغم شدة فقره حتى لا يوصم أسرته بأوصاف قبيحة ، وحتى لا يلقب أبناؤه بأبناء اللص الذى قضى فى السجن مدة من الزمن •• وانتقل يقدر هذه المدة التى لا شك أنه سيعود بعدها حقيرا فى نظر زوجته وأسرتها التى ما كانت لتحترمه يوما ما،فهي ما كانت ترضى عنه وهو الفقير فما بالك وهو الآن السارق ، واشتد حنقه ، وأحب أن يفجره على رقبة هذا المستبد به الذى يقوده الى حيث دماره •• وأخذ يوازن بين النتائج التى يمكن أن يصل اليها اذا ما هو استعمل يديه فى الشجار معه ، وهو الذى لم يستعملهما الا فى العمل •• « ينبغى أن ينقذ المرء شرفه •• وبأية وسيلة •• » ولأول مرة يدرك بأن فى استطاعة المرء أن يصبح قاتلا •• وهو الذى كان يتعجب من عمليات القتل التي يسمع عنها • ووجد نفسه أمام تبريرات، منها أن الذين يقومون بالقتل لا شك أنهم يقفون موقفا مماثلا •• ولهذا بدا له أن الشجار مع السيد من الممكن أن يؤدى الى نتائج سيئة لذا استمر فى ضرب الارض بقدميه من غير أن يضيف شيئا آخر الى أفكاره التى تشعبت ، وأخذت تشد بتلابيبه ، ففكرة السجن عادت تلح عليه بشدة • فما دام السجن من نصيب السارق ، فمن غير شك أنه سيدخله ••

وتسرب اليه أمل باهت فى أن يتفهموا موقفه ، فالحاكم لا شك سيقدر ظروفه ، ولا شك هو الآخر ، له أبناء ، وما دام المرء له أبناء فالرحمة ليست بعيدة عن فؤاده •• وعند ما تخيل نفسه يتقبل رحمة الحاكم فى ذلة وفى خنوع أهاجه منظره هذا ، فضم

أصابع يديه فى قسوة ، وهو يرفض هذا الموقف أيضا •• وأدرك أنه لم يبق أمامه الا أن يتخذ موقفا يفرضه هو بنفسه ، أما اذا ما استسلم للسيد المستبد ، فان جميع النتائج ، مع افتراض أحسنها، لن تكون فى صالحه هو ، ووسّع بين خطواته ، وهو يتمثل أمامه كل المواقف الممكنة ، وشعر بالرجل ذى الحذاء الاسود ، يسرع هو الآخر ، يقتفى أثره •• وتطلع الى السماء علّها تسعده بأمطارها الغزيرة ، فيفرّ من ورطته ، غير أنها كانت صافية زرقاء ، لا أثر فيها لاية سحابة •• مما دفعه الى أن يعقد العزم على الاعتماد على رجليه الهزيلتين ، وهو يفكر فى الفرار ••

وسمع من ورائه حركة تعثر السيد المستبد ، وسقوطه على وجهه ، وعند ما التفت إليه حاول أن يتقدم منه ليساعده على النهوض ، لولا أنه تذكر أنه فى حاجة الى استغلال الوقت للفرار •• واسلم ساقيه للرياح ، وهو يتخيل نفسه طائرا له جناحان ، فى الوقت الذى كان فيه السيد المستبد يمطره بالشتم ، وهو يحاول النهوض من عثرته ••

1965 — 2 — 22

رجل فقد وجهه

وجهي غدا مشوّهاً •• خليطاً من اللحم والعظم ، والسواد والحمرة ، والجراح والدم •• وما زال يُشوّه بعنف الى أن انقطعت الصلة بينه وبيني ، فغدوت أحمل بين كتفي شيئا مشوّها سُمي فيما قبل بوجه وسيم ، لعله استلفت أنظار حسناوات عديدات ، وهو الآن كتلة من عجينة غريبة ، لعبت فيها أيدي عدد من الملاكمين تبادلوها فيما بينهم بقسوة جنونية ، لم تسلم منها لا العينان ، ولا الوجنتان ، ولا الفم ، والانف ضاع فى هذا الخليط ، وغدا ثقبتين سوداوتين غير متوازيتين •• التسيئان الوحيدان اللذان سلما من هذه المداعبات السادية هما الاذنان ، اللتان كانتا طيلة الوقت تلتقطان أصوات اللطمات واللكمات •• فعبّر الوجه عن ألمه ببعض التعابير فى أول الامر ، بَيْدَ أنّه لم يعد يعبّر بأي شيء عند ما شُوّه تماما ، مما دفع الى الاعتقاد بأننى فقدت الصلة بوجهى ولم أعد أشعر بأي شيء •• وحتى اذا ما كنت أحس بألم ما فإن هذا الالم لم يعد بادياً،بل كمن فى داخلى ولا يعلم أحد مداه ، وهذا غير ذي أهمية ••

تلقيت الضربات من غير أن أقاوم ، ولم أحرك يدى لأتقي بهما اللكمات عن وجهى ، بل تركتهم يضربوننى كيفما شاءوا وأنى شاءوا من غير أن أحرك ساكنا •• وعند ما غدا مشوها ، كتلة من عجين بشعة فكرت : لماذا لم أغلق أذنى طيلة الوقت ؟ فيداى كانتا طليقتين ويمكنهما أن تغلقا أذنى فتصدا،على الاقل ، الاصوات المزعجة التى كانت ترتطم على وجهى •• ولكن كنت أريد أن

احتفظ فى ذاكرتي بهذه الاصوات مدة طويلة من الزمن لاستفيد منها فيما يستقبل من الايام •• انه تفاؤلى الذى لم يتخلّ عني رغم الحالة المُزرية التي أصبحت عليها •• إننى ما أزال أفكر فى الحياة من جديد رغم هذا الوجه البغيض الذي لم يعد بالنسبة لبقية الناس أكثر من كتلة عجينية تدعو الى التقزز والاشمئزاز •• فأنا وان كنت أحتفظ فى جيبى ببطاقة تعريفى فإن أيا كان لا يمكنه أن يصدق أنها لي •• وحتى اذا ما دفعنى اليأس ، في يوم ما ، من المحيطين بى وفكرت فى النزوح عنهم الى بلد بعيد حيث لا يعرفني أحد ، وحيث أعيش بقية حياتى فى هدوء واطمئنان ، فانني لن أستطيع أن أعبر حدود بلادى ، بل علي أن أظل فيها بالرغم مني، فجواز سفري لم يعد لي •• اذ لم أعد أنا أنا •• إنني أصبحت شيئا آخر •• ولا يمكنني أن أتصرف وفق ما أريد ••

ومع ذلك أستطيع أن أرجع إلى نفسي ، إلى داخلى ، حيث ما زلت أنا أنا •• وحيث ما أُزال أشعر بالالم وما تزال تتردد في داخلي الاصوات التى صحبت اللكمات ، ففى هذه اللحظات اللعينة لم أكن لأقول شيئاً •• لقد كنت صامتا طيلة الوقت •• يكفى أننى أدركت أنني خُدعت وأنهم استدرجونى إلى الغابة ثم انهالوا علي ضربا ولكما ، يكفينى اننى سجلت اخفاقى فى هذه المغامرة ، مغامرة وضع الثقة فى غير محلها حتى أدرك أننى لست فى حاجة إلى كلام •• إلى استرحام •• الى استغاثة •• وحتى لو خرجت عن صمتى وتكلمت فانهم لن يفهمونى ، لأننا لا نتكلم لغة واحدة •• ان اللغة تعبر ، عادة عن مكنونات الخواطر ، ومكنوناتنا مختلفة ، لذا لا نتكلم نفس اللغة ، هم يعبرون عن خواطرهم بالضرب واللكم، وأنا لا أعرف هذه اللغة •• ولذا خلدت الى الصمت وتلقيت ضرباتهم

برباطة جأش •• حقاً ، لقد عبرت عن إحساسي بالألم بتقطيب حاجبي فى أول الامر ، ثم لم أستطع من بعد ، التحكم فى عضلات وجهي ، فلقد تشنجت ومن ثم لم تعد ملكا لي ، وبالتالى لم أعد شيئا لا لهم ولا لغيرهم ، انهم أصبحوا لا يعرفوننى ، وبذلك تم لهم ما أرادوا ، لقد مسخونى ، وغدوت كتلة عجينية من الصمت، تمشي فى الاسواق ، لا تشعر بشيء ولا تعبر عن شيء ••

وتذكرت أحد الافلام كنت قد شاهدت فيها سلوك الاقدمين •• يوم كان الانسان انسانا ، حيث لم يكن يقدم المرء على قتل آخر الا اذا كان الآخر يحمل سلاحا •• كان يطالبه بالنزال ، ولا يمكنه ان يتحيّن الفرصة ليضربه من الخلف •• هذه هى أخلاق الاقدمين ، والى الآن كانت هى أخلاقى •• الشجاع يقف وجها لوجه أمام خصمه •• والجبان الرعديد يبتعد عن حمل السلاح ، فلا يمكن لأي شجاع إذ ذاك أن يقتله •• أما الآن فهم يستحوذون عليك لينزعوا سلاحك ثم يقتلونك ••

يداي كانتا بجانبى مرتخيتين طيلة الوقت ، فقد كانوا أكثر من واحد ، وكنت أنا وحيدا ، اعتبرت مجيئى الى هنا من أجل شخص واحد ، فاذا بى أسمع أصواتا أخرى •• ارتطامات ، لطمات •• لم أتبين أصحابها ، واحتفظت بيدى بجانبى ، وبشيء آخر : لقد ظللت واقفا طيلة الوقت ، فحتى عند ما استرجعت وعيي بعد جهد جهيد ، ووجدت نفسى وحيدا فى الغابة كنت ما أزال واقفا •• متكئا على جذع شجرة •• وشعرت بشيء ثقيل جدا فوق كتفي •• وأن علي وحدي أن أحمله ، وابتعدت عن الشجرة بتثاقل وأنا أفكر فى العودة الى بيتى حاملا وراء وجهى المشوه أفكارا أخرى •• ثقيلة •• ثقيلة جدا ••

1966 — 4 — 13

10

وان .. تو .. ثري .. فور .. فايف

وان ·· تو ·· ثرى ·· فور ·· فايف ·

وان ·· تو ·· ثري ·· فور ·· فايف ··
وان ·· تو ·· ثري ·· فور ·· فايف ··
وان ·· تو ·· ثري ·· فور ·· فايف ··

وأقلق زوجته بجانبه ، فاستدارت الى الجهة الأخرى ·· لقد كانت بها رغبة شديدة فى النوم ، سيما وأن نهارها كان مملوءا ، وأن ليلة الامس قضتها بجانب طفلها من غير أن تذوق للنوم طعما ومع أنها استدارت الى الجهة الاخرى فلقد عاد إلى سمعها :

وان ·· تو ·· ثري ·· فور ·· فايف ··
وان ·· تو ·· ثري ·· فور ·· فايف ··
وان ··

وألقت الغطاء على رأسها أيضا ، تبعد به عنها سماع هذه اللغة الجديدة التى ألحّ زوجها على تعملها مع أنه تجاوز الاربعين·· لقد استهزأت منه فى أول الامر ، وذكرته بالمثل الشعبى : « القرد المُسن لا يستطيع تعلم الرقص » ولكنه ردّ عليها في عناد بأنــه ليس قردا ·· ثم ان القِرَدَة لا تتكلم ، والا لكان في استطاعتها أن تتعلــم هذه اللغـــة :

وان ·· تو ·· ثري ·· فور ·· فايف ··
وان ·· تو ·· ثري ·· فور ·· فايف ··

« تراها ماذا تعنى هذه الكلمات الممضوغة ·· ؟ » لقــد حفظتها بالرغم منها ·· وأخذت تعيدها معه ، المرة تلو الاخرى ،

حتى بدالها أنه من الممكن أن تتعلم هي الاخرىهذه اللغة الجديدة..

وان .. تو .. ثري .. فور .. فايف ..

ما أسهل هذه اللغة .. وأبعدت عن رأسها الغطاء ..
وتطلعت الى زوجها والكتاب بين يديه ..

فور .. فايف ..

وقاطعته هى بقولها :

وان .. تو .. ثرى .. فور .. فايف ..

ولم يقل لها شيئا بل استمر فى قراءته :

وان .. تو .. ثرى .. فور .. فايف ..

وعند ما لم يبد لها أي رأي فيما أظهرته من سرعة فى الحفظ استدارت من جديد الى الجهة الاخرى ، وهى تحاول ان تستدعي الى جفنيها النوم ، رغم الضوء الذى يعاكسها ، وصوته الأجش :

وان .. تو .. ثري .. فور .. فايف ..

وان .. تو .. ثري .. فور .. فايف ..

وان .. تو .. ثري .. فور .. فايف ..

وان .. تو .. ثري .. فور .. فايف ..

وضعت أصبعها فى فتحة أذنها .. ولكن مع ذلك كان صوت زوجها الخشن يجد سبيله الى أذنها .. فكرت من جديد فى أن تطلب منه أن يتركها تنام ، ولكنها باعدت عنها الفكرة ، فلكي يخرجوا من هذه الضائقة التى يعيشون نيها لا بد من وسيلة ، ولعل الوسيلة التى اقتنع بها زوجها ستبعد عنهم الفقر ، وستنام بعد ذلك نوما عميقا .. أما الآن ، فلا بأس من تضحية . انها محظوظة ما دام زوجها رجل شغيل ، ويمكنه أن يقوم بأي شىء من أجل راحتها وراحة أبنائها .. وان كان حظه كحظ أخيها ما زال

فى السماء ، ولعل « وان •• تو •• ثرى •• » ستعمل على إنزاله إلى الارض •• وبذلك لن يظلوا فى هذه الحجرة الضيقة التى يتراكمون فيها كسردين فى علبة ••

وان •• تو •• ثري •• فور •• فايف ••

لم يتركها تتخيل الحالة التى سيغدون عليها وتسبح فى حلم جميل يوم يتوفر لزوجها عمل آخر ، بل أخذ يتعلثم ، هذه المرة ، فى ترديد الكلمات ••

وان •• تو •• تو •• تو ••

ثرى •• فور •• فور ••

واستدارت نحوه فوجدته قد أغلق الكتاب ورفع رأسه الى السقف وهو يردد الكلمات محاولا أن يستظهرها ••

واستبشرت خيرا •• لعلها ستنام قريباً بعد أن يتم له استظهار كلماته الممضوغة •• بَيْدَ أنه عند ما أخفق عدة مرات أعاد فتح كتابه من جديد ••

وان •• تو •• ثرى •• فور •• فايف ••

وان •• تو •• ثرى •• فور •• فايف ••

وأخذت نفسا طويلا أخرجته من أعماقها •• لَيْتَهُم سمحوا لها بأن تحفظ هذه الكلمات بدل زوجها فلا شك انها كانت ستستظهرها فى أسرع وقت : وان تو ثري فور فايف ، ولكنهم لن يفعلوا ، لأن زوجها وحده مَن يستطيع العمل مع أصحاب هذه اللغة الجديدة،الذين يقال عنهم أنهم سيأتون إلى هنا بأموالهم الكثيرة ، وسيشغلون معهم زوجها فى التليفون ••

ـ « آلو •• آلو •• وان ، تو ، ثرى ، فور ، فايف ؟ »

ـ آلو •• نعم •• وان ، تو ، ثرى ، فور ، فايف •• »

وان •• تو •• ثرى •• فور •• فايف ••
وان •• تو •• ثرى •• فور •• فايف ••
وأخذت ترن فى أذنها بصورة لم تستطع معها الا أن تطلب منه:
ـ « أما آن لك أن تنام •• أترك ذلك الى صباح الغد •• »
ـ وان •• تو •• ثرى •• فور •• فايف ••
انها تنتظرنى أشغال كثيرة نهار الغد ، وان لم استرح فانى لست أدرى الحالة التى ستصبح عليها صحتى ••
ـ وان •• تو •• ثرى •• فور •• فايف
ـ ما أقسى قلبك •• !
وتدثرت بالغطاء ، وهى تزمجر •• واستمر هو فى حفظه••
وان •• تو •• ثرى •• فور •• فايف ••
وتمسكت بالصبر •• بيد أنها لم تستطع أن تتحمل أكثر ، ففى ثورة وغضب ، قامت وانتزعت منه كتابه ، وأخذت تمزقه بين يديها وهى تقول عند كل تمزيق ••
وان ••
تـــو ••
ثـــرى ••
فـــور ••
فايـــف ••
وبذلك مزقت كل أمل فى انزال حظهما من السماء •
واشتد خصامهما ، واجتمع حولهما كل الجيران •• وعندما أعادوا الامور الى نصابها ، ناما فى فراشهما الوحيد وقـــد أدارا ظهريهما لبعضهما وما تزال ترن فى آذانهما :
وان •• تو •• ثرى •• فور •• فايف ••

1966 — 4 — 14

الـــورد

(الى الصديـــق العزيـــز
محمد زنيبر مع التقديـــر
والاعجاب •••)

عاد من (باريس) بعد أن أنهى دراسته الجامعية ، وعاد يحمل معه أفكارا فلسفية بعيدة كل البعد عن تلك التى كان يعتقدها وهو لا يزال ببلاده ، فقد تعرف على « الماركسية » واقتنع ايما اقتناع بالاشتراكية العلمية ، وبأشياء أخرى كثيرة،منها ان يرفض كل ما هو غيبى ، بما فى ذلك الدين •• فدينه الذى كان يؤدى فرائضه كلها مع سائر أفراد أسرته ، تركه فى (باريس) وعاد يحمل افكارا تقدمية ، غير متأسف على أفكاره التى اعتبرها رجعية•

والتزم حضور الاجتماعات التىيعقدها الحزب كل يوم اثنين ، واظهر كل الاستعداد للانضباط ، ولاداء كل عمل يطلب منه ، لا لأنه يريد أن يظهر لزملائه بأنه اكتسب مفهوما آخر للحياة ، وللصراع ، وللاخلاص ، ولكثير من الامور الاخرى ، ولكنه فقط ليؤدى واجبه ازاء بلاده التى ترزح تحت أثقال الاستعمار ، هذا الاستعمار الذى لم يعد يراعى أيا كان •• فحتى ملك البلاد يشيّعون أنهم سيعملون على نفيه الى بلد بعيد ، ثم يلقون فى السجون بكل وطني غيور ، وبذلك يتسنّى لهم أن ينعموا بخيرات البلاد •

وترددت الاشاعة على أفواه كثيرة ، مما جعل المسؤولين عن الحزب يعتقدون اعتقادا جازما بأن الملك سيُبعد ، وأن أياماً سوداء ستلحق بالحزب ، ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بماذا ستصبح عليه الحالة إذ ذاك ••

وكثرت الاجتماعات ، وبسرية بالغة ، فى هذه المرة ، وعم التوتر كل النفوس ، واهتم صاحبنا بالاخبار يتسقطها من الاذاعات والجرائد ، وسهر الليالى من أجل ذلك ، حتى لا يُؤخذ على حين بغتة ، كما حصل له لما كان صغير السن بمناسبة الظهير البربرى...

واشتد التوتر عند ما أُخذت تتحرك بالمدن فيالق من الجيش بسلاحها الكامل ، واعتقد الجميع أن النهاية ستكون وخيمة ولا شك على كل من تسوّل له نفسه بألا يلتزم بما يُطلب منه ، كما ظهر للجميع أنهم ضعفاء أمام قَوي جبار عنيد .

وفى يوم الاثنين عندما حضر صاحبنا اجتماع الحزب بدا له أن هذا الاجتماع ربما سيكون الاجتماع الاخير ، ولذا أبدى اهتماما لكل ما يقال ، كما تطلع الى وجوه كل الحاضرين يتزوّد بالنظر اليها ، فلعل فراقا طويلا سيعمل على تشتيت هذا الجمع المنسجم ، ولاحظ بين الوجوه ، وجها جديدا لرجل طويل القامة ، ذى لحية قصيرة سوداء . وخطر بباله أن يكون مبعوثا من مدينة أخرى ليسهر على تعليمات جديدة أقرها الحزب بالمناسبة .. ولكن تخميناته سرعان ما تبخرت عند ما أعلن « مسيّر » خلية الحزب بأن بينهم المتصوف (فلان) قضى زمنا طويلا فى التعبد والاعتكاف ، حمل اليهم الآن « وردا » يعتقد معه أنه سيجعل ملك البلاد فى حرز حريز من أي مكروه ، وهذا الورد يتلخص فى أربع جمل تردد خمسة وعشرين ألف مرة ، وبذلك سيصبح هذا الورد سياجا منيعا لا يستطيع معه العدو الغادر ان يتجاوز سور القصر .

وأطال « المسيّر » فى تعظيم شأن الورد ، والمزايا التى يمكن أن تلحق الحزب على يده ، ولذا فالمناضلون مطالبون بقراءته، وعلى كل واحد منهم أن يقرأ الليلة نصيبه منه ، وبذلك سيؤدي

واجبه • والا فان الملك ، كما يقال ، سيُنفى في هذه الليلة بالذات ، وما خروج « الرجل المتصوف » من اعتكافه الا لينقذ البــلاد من الهاوية ، وهو يدرك سرّ هذا الورد ويحتفظ به للايام العويصة ، وحيث أنه ليس في استطاعة انسان ان يقرأ الورد خمسة وعشرين ألف مرة دفعة واحدة فانه قصد حزبنا ليساعده على ذلك •

واقتسم الحاضرون الورد فيما بينهم ، وكان حظ صاحبنا منه الف مرة ، أخذ وعداً على نفسه أن يقرأها بكاملها ، وانفــض الجمع ، وهم يعتقدون تمام الاعتقاد بأن سيادة البلاد لن تنتهك ما دام الورد كفيلا بوضع سياج من حديد أمام المستعمر الغاشم •

وفي هذه الليلة لم يسمع جيران صاحبنا محطات الاذاعة المختلفة ، بل سمعوا صوته الاجش يردد دعواته طيلة الليل • ولم ينه ورده حتى العاشرة صباحا ، ولذا أتم نهاره نائما •

وفي المساء خرج الى الشارع يتسقط الاخبار السارة وهو متيقن من أن الورد أبعد الشبح المخيف عن البلاد ، غير أن أحدهم أسرّ اليه بأن عليه أن يدخل الى بيته قبل السادسة ، لان منــع التجول قُرّر صباحا ، وأن القوات العسكرية التى يراها الآن أمامه كفيلة بإفراغ رصاصها في جوفه اذا لم يمتثل • وعند مــا سألــه مستغربا : « لماذا ••• ؟ » قيل له ان الملك نفي الى الخارج •

وبدلا من أن يتأسف أو يبدي اندهاشه أطلق قهقهات عالية، تعجب منها كل من سمعه ورآه ، أما هو فقد عاد الى بيته مسرعا وهو يضحك من نفســه •

1969 — 6 — 14

صديق ..

باريس صباح يوم الاحد كالمومس لا تقوم من نومها الا بعد العاشرة ، لذلك لم تكن بي رغبة فى مغـادرة الفراش قبـل العاشرة ، غير أن أبي ألح علي فى مصاحبته ، فخرجت معه علـى مضـض •

أخذنا نسير بجانب نهر (السين) مدة طويلة ممـا جعـل كثيرا من الاسئلة تتراقص امامى •• فأنا لم أكن أعلم شيئا عـن هذه النزهة ، ولم أكن أدرك ما يرمي إليه والدي من ورائها ، غير أن صمته الغريب جعلني لا أزعجه بأي سؤال ••

توقف أبى قليلا ينظر الى خشبة كانت تعلو سطح النهر، ثم سعل سعالا خفيفا وهو يستأنف سيره • وخطـر ببالـى أن استفسره ، غير أنه كان لا يبدي لي ـ مسبقا ـ أي اهتمام ، لـذا لجأت الى الصمت وقلت فى داخلى : « ان وجود جزائريين بشاطىء النهر يُغرى برميهما فيه ••• » ثم تساءلت : « لماذا لا أنبه والدى الى ذلك فيختار طريقا آخر •• ؟ » وفيما أنا أُحاول أن أطلعه على ذلك استوقفتنا صيحة من ورائنا ، فالتفت أبى بسرعة ، ثم توقف عن سيره تماما ، وهو يتبين صاحب الصوت ، غير انه أتم سيره عند ما أدرك انه ليس هو المقصود ••• وعلمت ساعتها انه مقدم على فعل شىء ، فحركاته توحي بأنه قلق •

وتوقفت عن السير ، محاولا أن ألفت والدي إلى أنني أريد أن أقول شيئا ، غير أنه كان ما يزال ينظر الى سطح النهر وهـو

11

يسيـــر ..

كانت خطواته متزنة ، يسمع لها وقع على الرصيف ، ويداه فى جيبيه يتقي بهما شدة البرد ، وعند ما أحس بأنه ابتعد عنــي استدار ينظر إلي فى هدوء ، ولما تحركت نحوه أعاد نظره إلــى النهر واستأنف سيره ...

واقتربت منه ، ثم أخذت استعد لاعتراض سبيله ، غيــر اننى اخفقت فى ذلك اذ سرعان ما تذكرت كيف يعاملنــى ، فهــو يعتبرنى طفلا صغيرا وان الستة عشرة سنة ليست بالشيء الذى يسمح لى أن أبدي ملاحظاتي وحتى أنا ان ابديتها لا يعيرها أي انتباه بل مرارا ، عند ما اعارضه ، يتصنع اللامبالاة ، واذا ما ألححت فى معارضتى كان يزمجر في وجهي غاضبا وهو يقول : « لا ترفع صوتك هكذا .. انى اسمعك .. » ومع ذلك لا يلتفت الى مـــا أقول .. فهو يعتبر تصرفه هذا هو الوسيلة الوحيدة ليجعل مني رجلا قويا .. لذا علمت انه لن يعيرنى أي اهتمام اذا ما أطلعته على تخوفاتـــى .

وتخلفت عنه بعض الخطوات حتى يتسنى لــى القيــام بحراسته ، ففى استطاعتى لكى ابعد عنه الخطر اذا ما حاق به . أما هو فلم يكن ليحول بصره عن النهر ، الشيء الذى أقلقنى . وقلت في نفسي « لا شك انه يترحم على مَن غرقوا فيــه » واحسست بخطوات رتيبة ورائى ، فاقشعر بدنى ، وقبل ان التفت قلت فى داخلي : « لا بأس من أن انتظر إلى ان يقترب صاحب الخطوات وعند ذلك من الممكن ان ابعد الخطر عن والدى » وجرفنى حنـان قوي ، فلقد خشيت ان يصيب والدى سوء .

وأخذت الخطوات تقترب ، لكن فى صمت وفى توجس ،

وكأن صاحبها لا يريد أن ننتبه إلى وجوده •• فتسارعت دقات قلبى ، وركضت نحو والدي ، ولكن عند ما اقتربت منه والتفتّ ورائى كان صاحب الخطوات امرأه عجوز •• وتنفست الصعداء ، مما دفع أبى إلى أن ينظر إلي في استغراب •• غير أنـي خفضت بصرى الى الأرض حتى لا يسألني شيئا ، وحتى لا أبدو أمامه جبانا ••

وسرنا مدة ، وأنا أغلي كبركان ، لقد كنت أسير على أعصابى ، فباريس أخذت تستفيق ونحن ما نزال نسير بجانب النهر •• وقرّرت فيما بينى وبين نفسى على أن أطلع والدي على المصير الذى ينتظرنا إذا ما نحن ظللنا نسير هكذا ، وليعتبرني كما يشاء ، اما الشيء المهم هو الا يُلقى بنا فى الماء ••

وفيما أنا استعد لأن أتكلم اذا بوالدى يسألنى : « ماذا هناك ؟ ماذا تريد أن تقول ؟ » وأجبت فى تعلثم : « إلى أين نسير ؟ » وأجابنى باقتضاب « صديقى هشام اختفى عنا منذ أربعة أيام •• » أدركت أن والدى يبحث عن صديقه ليدفنه ••

واطمأن فؤادى شيئا ما ، غير أنى اخذت افكر فى شيء جديد « كيف يمكننا أن نحمله وأن نخفيه عن الانظار •• ؟ مسكين هشام ، سيكلفنا دفنه كثيرا •• » غير انى تعزيت شيئا ما ، وأنا أسير ، اذ ليس من المؤكد أن نجده •

واقتربنا من غابة صغيرة •• فاستوقفنى والدى بقوله : « ألا ترى شيئا ؟ » واجبته وانا انظر الى هيكل باخرة بالية : « انها باخرة ••• » فقال لى «ألا ترى شيئا آخر من ورائها ••؟» وتبيّنت ما أشار اليه ويالهول ما رأيت ، جثة فى ثياب رثة ، تطرق الباخرة برأسها طرقات متوالية ، مما دفعني إلى أن أغمض عينى

في تقزز ، وأن أخفى وجهي بين يدى ، وسمعت والدى يقـول : « هيّا انزل الى الماء ، واخرجه بسرعة •• » ولم أقل شيئاً ، بل أخذت انزع ثيابى فى عجلة ••

ونزلت الى الماء البارد ، حتى اذا ما اقتربت من الجثـة حولت بصرى عنها وانا امسك بها من قفاها ، ثم أُخذت أُسبح ••

كان والدى ينقل نظرد ذات اليمين وذات الشمال ، وبدا ان الهدوء الذى كان يخيم عليه من قبل قد فارقه ، فأصبحت حركاته مستعجلة ، وكلامه غير واضح،واقتربت منه ورفعت الجثة بيـن يدي أُحاول أن أسلمها اليه ، ليساعدنى على جرها ، وسرعان ما بدا لنا ان الشخص الذى بين أُيدينا فرنسيا « كلوشارا » يتدلّـى من عنقه صليب •• فافترّ ت شفتاي عن ابتسامة ، وتركته ينسحب من بين يدى •• غير ان والدى قطب ما بين حاجبيه وهو يقول : « اخرجه •• » وصحت فيه : « لمـاذا ؟ » فأجابنـى بهـدوء : « لندفنه •• لنكن أكثر منهم إنسانية » •

— 1962 —

الجيلالي الحوات

الجيلالى الحوات لم يكن من طبعه أن يعود متأخراً إلى البيت ، ولكنه فى هذه الايام أخذ يقلق زوجته فطومـــة بتأخـــره المتكرر ، وعند ما أحبت أن تسأله هذه الليلة عن سبب ذلك ، كان قد أسرع إلى إبلاغها بأنه تعب جداً ، وأنه فى حاجة الى النوم • وحين شعر بأنها تحتاج الى ايضاح قال لها : « لقـــد انفرجـــت الازمة ، غدا سأبدأ حياة أخرى •• » •

وعند ما ضمهما فراشهما العتيق تتقلب عـــدة مرات علـــى جنبيه ، من غير أن يعرف النوم لعينيه أي طريق ، ففي صباح الغد سيشرع فى عمله الجديد •• وكأنه يخشى على نفسه من أن يستغرق فى النوم ويصل إلى عمله متأخرا ، ويبدأ بداية سيئة تلفت إليـــه الانظار ، لذا فهو يتقلب فى الفراش من غير أن ينام •

ولاحظت (فطومة) أن الجيلالى ينطوي على سرّ يُبعد عنه النوم لذا أخذت تدير فى رأسها طريقة لاستجلاء السر المكنون ، وما أن تمّ لها صياغة ذلك حتى بادرته بالســـؤال : « هـــل كـــان (المعلم) مسرورا منك اليوم » • ولم يجبها •• بل استدار مرة أخرى على جنبه •• ولم تيأس بل ألقت عليه سؤالا آخر : « هل بعت اليوم سمكا كثيرا •• ؟ » •

واستدار الى جهتها وهو يقول : « لن تحدثينى بعد اليوم عن السمك •• ؟ » •

ــ « لماذا ؟ ماذا حصل •• ؟! »

– انتهينا من السمك ، ورائحة السمك • وأكل السمك ••
انتهينا من ذلك يا فطومة •• وغدا سأبدأ حياة أخرى •• لقد وجدت عملا آخر • وأجرته مضمونة كل شهر •• ولن نبقى عرضة لتقلبات السوق ، ومزاج « المعلم » •• الآن بهذا العمل سنضمن أجرتنا كاملة كل شهر •• أتسمعين يا فطومة •• كل شهر •• ؟

ولم تجبه ، لقد انطلق •• وهى تعرف طبعه •• إنه لا يتكلم كثيرا ، ولكنه عند ما يأخذ فى الكلام فلا أحد يستطيع أن يوقفه الا عند ما ينتهى مما يريد قوله ••

وفكرت ، اذن زوجها لم يعد بياع سمك ، بل أصبحت له أجرة مضمونة ، يا لسعادتها لقد أصبح زوجها موظفا •• ! ومن صباح الغد سترتاح من روائح السمك ، التى تعبق خياشيمهما كل يوم •• وستدخل بيتها صنوف أخرى من الاطعمة ، بدل السمك وسيتغير اسمها ، ولن تبقى فطومة امرأة الحوات ، ولن يبقى بيتهم دار الحوات ••

كان زوجها ما يزال يتحدث اليها •• ولم تكن هى لتسمع ما يقول ، وعادت اليه من مجال خيالاتها اللذيذة لتسمعه :

« السيد عبد الرزاق رجل طيب ، لقد عرفت انه طيب من أول يوم وقف فيه أمامى لشراء الحوت •• هناك أناس طيبون تعرفهم من وجوههم حتى ولو لم يتكلموا ، أنت لا تتصورين مقدار فرحتي عند ما صدق ظني فيه ، لقد فرحت لذلك بمقدار ما فرحت لعملى الجديد •• تصورى اننى كنت معه صادقا •• لقد نصحته بأن يأخذ نوعا خاصا من السمك وقبل نصحى •• السيد عبد الرزاق الموظف بالبلدية يقبل نصيحة الجيلالى الحوات ، ويثق فيه ويعمل بنصيحته •• ! ومن ثم يصبح لنا زبونا •• (المعلم) فرح بأن

يكون أحد زبنائه أمثال السيد عبد الرزاق ، حتى أنه لم يخف عنى ذات يوم سروره من عملي بقوله : « لا شك أن آمك أمطرتك بدعواتها الطيبة قبل أن تموت •• إن موظفاً ساميا يقف أمام بضاعتنا الكاسدة شيء لا يحصل الا لمن كانت أمه تدعو له بالخير والبركة •• » حقا لقد كانت والدتى تدعو لي بذلك •• » •

وعند ما صمت قليلاً أخذت فطومة تعقد مقارنة بينه وبين هذه الشخصية السامية التى سيصبح زوجها من رفاقها فى العمل•• وعند ما وجدت الفرق شاسعا بينهما تنهدت فى تستر وهى تستدرج زوجها لاتمام حديثه •

ـ وكيف ظهر لك أنه رجل طيب •• ؟

وابتسم الجيلالى فرحا وهو يجيبها : « لم يخب ظني فيه •• اننى لن أنسى ما حييت يده البيضاء علينا •• لقد أخرجنا من الظلمات الى النور •• ولن تسمعي بعد اليوم الدقات المزعجة على الباب عند الفجر ، ولن تسمعى صوت المعلم الخشن وهو يلعن ويسب • بل سأغادر البيت من تلقاء نفسى ، ولن يخرجنى أحد بالرغم منى •• وسأواجه عملي بكل انشراح •• وفى نهاية الشهر سأقبض أجرتى من غير أن يحاسبنى احد ، ولن يتهمنى احد بالسرقة •• وسنشترى ما نريد ، وندفع ما علينا من ديون •• ونعيش سعداء مرتاحى البال كبقية عباد الله الصالحين •• »

واستلذت فطومة هذا الحديث الحلو ، وانشرحت وهي تتخيل ما يحدثها به زوجها •• ورقّ قلبها لحاله وهى تحدث نفسها: « انه رجل طيب •• حقا •• لقد عرفت أنه طيب من أول يوم ••»

وأضاف قائلا : « كما أن هناك شخصاً آخر ساعدنى •• هو مسعود •• خادم رئيس البلدية •• فعند ما أطلعته ذات يوم

على رغبتي فى تغيير العمل •• نصحنى بالعمل بالبلدية ، ولما حدثت السيد عبد الرزاق عن ذلك طلب مني أن أقدم عندهم الى البلدية •• لقد اعتقدت فى بادىء الامر أنهم لن يشغلوني ، غير أننى عند مـا ترددت عليهم كثيرا شغلونى •• ألم أكن أقول لك دائما : « يلزم ألا يقطع المرء الامل فى هذه الحياة ، فلا بد وأن يقدم اليوم الذى تتبدل فيه الاحوال وتتغيّر •• » •

وأجابته زوجته : «حقا •• لا بد وان تتغيّر الاحوال •••» وأحبت بذلك أن تنهي الحديث علّ النوم يعود اليه ما دام قد باح بسره ، ولم يثقل بعد رأسه ، غير أنه أضاف اليها شيئا آخر ••

ــ « اننى لم أحدث « المعلم » عن ذلك •• ؟ »

ــ ولمــاذا ؟ ••

وضحك بملء شدقيه : « إننى أريد أن أتركها له مفاجأة في صباح الغد ••• »

ولم تشاركه زوجته ضحكه ، بل قالت له مؤنبة : « إن هذا عمــل لا يليــق •• »

ــ ولماذا •• ؟ على الاقل أنتقم لنفسى ولو بهذا المقدار ••

ــ ولكنه كان يساعدك ، ولولاه لبقيت عاطلا كــل هــذه الاعــوام ••

ــ لا تقولى ذلك يا فطومة •• لو لم أشتغل له لمــا كــان يحصل على كل هذه الاموال •• أنا الذى اشترى وأبيع •

ــ ولكن الرأسمال ؟ !

ــ انه له ، ولكنه ينبغى أن لا تنسي ما أقوم بــه أنا مــن أعمال ترجع أرباحها اليه ، ولا يعطينى منها حتى العشر ••

ــ لا •• لا يا الجيلالى إ نله رأسمالاً ••

ــ ولماذا لا يكون لي أنا رأسمال
ــ الدنيا هكــذا •••
ــ ولماذا الدنيا هكذا •• ؟ !
ــ لا أعلــم لمــاذا ••
ــ أنا أعلم لماذا •• لقد وجدنــي مغفّلاً ، ما كنت لأشتغل معه بمثل ذاك المقدار ••
ــ اذا لم تتقبل أنت فسيجد أحدا آخر غيرك ••
ــ طبعا •• وهذه مصيبتنا ، نحن الفقراء ، جماعة مــن المغفليــن ••

وأرادت أن تقاطعه ، فهى تدرك بقية الحديث اذ ستثور ثائرته ، وسيلعن ويسب جميع الاغنياء ، وسينهى حديثه باليوم المشهود الذى سيكنسهم فيه كنساً •• غير أنه كان قد خاض فى ثورته ، فلم تعره اهتماما ، واستدارت الى الجهة الاخرى تبحث عن النوم فى أعقاب شتائمه ، غير أنه خطر ببالها ، بعد قليل ، أن تسأله عن نوع العمل الذى يقوم به ، ولكنها لم تجد فرصة مواتية اذ سرعان ما استدار هو الآخر الى الجهة الاخــرى يبحث عــن نــومــه •

وقبيل الفجر كان الجيلالى قد استيقظ ، فأيقظ زوجتــه بحركاته التى لم يوفّق في أن تكون هادئة ، ولذا قامت هى الاخرى تهيء له طعام الفطور ، وعند باب الدار كانت ترقد مكنسة جديدة حملها على ظهره وانصرف •

وبقيت هى مشدوهة لنوع العمل وللاسم الجديد الــذى ستحمله، اذ لم يكن يخطر ببالها أن يشتغل زوجها « زبالا » وتنبهت الى نفسها بعد برهة من الزمن مرددة فى داخلها : « على الاقل اننا بذلك لن نبقى تحت رحمة رأس المال » •

6 — 4 — 1968

الرجال ..

نزلت من السيارة الفخمة ، وعانقته بحرارة قوية .
وأحسست بشعر لحيته بين شفتى وأنا أقبله • كانت إحدى يديه تضمنى ، فى حين كانت الاخرى تمسك بدراجته ، وعند ما أزحت عنه يدى وأخذت أسأله عن صحته وأحواله أحسست بعينى تمتلآن بالدموع غير أنى تمكنت وبصعوبة من اخفائها وانا أحاول أن آبدو طبيعيا ••• ثم ابتعد عني وهو يحيينى باحدى يديه ويمسك بالاخرى دراجته البالية •••

وصعدت الى السيارة بجانب أخى ، وعند ما أمعن فيه النظر من الخلف نظر إلي فى استغراب وهو يحرك رأسه ، فتلافيت نظراته وأنا أنظر الى الشارع من خلف زجاج النافذة •

واقتربت زوجة أخي محملة بكثير من مشترياتها ، وفتحت لها باب السيارة ، فدخلتها وهى تسألنى : « من ذاك الرجل الوسخ الذى كنت تعانقه •• ؟ » وأضاف أخى : « لم يكن ينقصنى الا أن أعلم أنه يعاشر أناسا من هذا النوع ••• » والتفت إلي قائلا : « من هو •• ؟ ! » وتلافيت نظراته من جديد وأنا أجيبه : «اعتقد أن من حق الرجال أن تتعارف •• وأن الرجلَ الرجلَ من يتعرف على جميع « الانواع » أليس كذلك •• ؟ » وابتسم وهو يقول لزوجته: « أنت تعرفين أطواره الغريبة ، ويمكنك أن تضيفى اليها هذه أيضا •• » ولم تعلق على كلامه بشىء بل أقفلت باب السيارة التى انطلقت بنا تعبر شوارع المدينة الكبيرة ، حيث المارة تعترض

سبيلها من حين وحين ، وأحس في كل لحظة بأن الاصابع تشير إلى أخي ، الذى أصبح ، بعد الاستقلال ، وبقدرة قادر ، غنيّاً من أغنياء مدينتنا ، فالناس يشيرون اليه كلما مرّ ، كما أُخمّن أن اشاراتهم تلحقنى أنا أيضا ، وأحسها سهاما نافذة • ولكم ابتعدت عن الاماكن التى أصادف فيها مثل هذه السهام ، غير أني كنت . فى أغلب الاحيان ، مضطرا إلى مصاحبة أخي لما تقتضيه ظروف عائلتنا •• أما هو فلم تكن تضايقه هذه الاصابع ، بل كان يجد لذة فى ذلك •• محاولا أن يقنعنى بأن الناس يفضلون ، دائما ، الرجل « الذكى » ويقدرونه ، ان الكسب والثراء لا يلزم أن يتوفرا ، فى هذه الايام ، للذين يجدّون ويستقيمون،بل للذين يحسنون استغلال جميع الظروف والملابسات ، يعنى أن يكونوا أذكياء ، فالذكاء هو وحده الذى يسمح لهم بأن ينجحوا فى أعمالهم ، وليست الثقافة أو النزاهة أو العمل الجدّي المتواصل ••• وعند ما كنت أعارضه أحيانا بأفكار مثل العدالة ، وعدم الاستغلال ، واتاحة الفرص للجميع كان يهزأ مني وهو يقارن حالته بحالتى التى كانت تقرفه ، وتجعله يصفنى بالمثالى أ وبالرجل العنيد ، غير ناس أن يذكّرنى بأنه ، مع ذلك ، يعمل للصالح العام ، وأنه إنساني إلى حد أنه يعاضد جميع القوات التقدمية فى العالم ••• ! وكنت أضحك من تناقضاته التى كان يحاول ، دائما ، أن يسترها بنوع من السفسطة والتهريج مستغلا الفكرة التى يكونها عنى من مثالية وعناد ، ناسيا أننى أراه كما لو كان عاريا أمامى ، ولا تستطيع كلماته الضخمة كالانسانية والتقدمية أن تستره عن بصرى •• وأننى أراه كما هو فى واقعه ، لا كما يريد أن يصف لي نفسه •• وأن الناس ، هم أيضا ، لا يرون فيه الرجل « الذكى » والانساني،

بل إنهم بحسهم الفطرى يعلمون ان الجسم المعتل لا بد أن يموت، وأنه هو فى نظرهم رجلا مريضاً يقاوم مرضه بشتى الاكاذيب والادعاءات ، وسيموت يوما ما ، ومع ذلك سيرى انسانيتهم التى لن تهتم به بل انها ستنطلق لصيانة العدالة ، ولعدم الاستغلال ، واتاحة الفرص فى وجه الجميع •• وان كانت الاصابع ستظل تشير اليه ، مخمنا من أنها لن تلحقنى أنا في هذه المرة ••

وابتسمت فى استهزاء ••• فاستدار نحوى يسألنى لماذا ، وأشرت الى الراديو وأنا أقول : « أتسمع هذه الاغنية •• ؟ » فرد على وهو يلعن أحد المارة كاد أن يدهمه : « لا ان انتباهى يكون موجها الى المارة عند ما أكون بالمدينة •• ماذا تقول الاغنية •• ؟» فأجبته : « كلام •• كلام تافه •• كنت أعتقد أنك تستمع الى الراديو •• » والتفت الى زوجته : « وأنت •• ؟ » فردت عليه تنظر الى واجهات المحلات التجارية الكبرى : « لا ••• » .

ولم أعلق على ذلك فقد كان كل واحد منا يهتم بشى•• أو لا يهتم بأي شيء •• في حين كان الراديو يواصل برامجه محاولا أن يملأ الفراغ بشيء ••

واستلفتت كلمة الفيتنام ، الواردة فى نشرة الاخبار ، اهتمام أخى ، فبعد أن استمع الى كل الخبر علق على ذلك بقوله : « حقا ، انهم رجال ••• ! » وانطلقت انسانيته تصول وتجول •• وأفكاره التقدمية والثورية تطغى حتى على صوت المذيع •• وعند ما أحس ببرودة أعصابى وعدم اهتمامى لاقواله أخذ يستفزنى بشتى الوسائل علّنى أدخل معه فى نقاشات تعودنا عليها من زمان ، غير أني كنت مشغول الفكر فلم أعره اهتماما •• ولكنه كان شديد الالحاح فى أن يثرثر •• ثم أخذ يقارن حرب الفيتنام بحروب

تحررية أخرى ، فى نوع من إظهار الفهم والاستنتاج ، غير ناس أن يتحدث عن طباع الشعوب ، وأننا ، في العالم العربى ، نحتاج الى رجال مثل هؤلاء الرجال ••• ووجـدت نفسى مرغمـا الـى محادثته ، مظهرا له أننا لا نعدم الرجال •• وذكرته ببطولات عديده قام بها رجال من عامة الناس •• وعقّب على كلامى قائلا : « كلام فارغ •• لم يبق هناك رجال •• » وخطر ببالى وأنا أنظر إليه أن أجيبه : « حقا •• » ولكن بدا لى أن أخبره بشىء : « قل لي هـل تعرف المقاوم فلان •• ؟ » فأجاب على الفور : « نعم •• أعرفه •• هذا رجل •• » ثم انطلق يمجد أعماله البطولية ، شارحا لزوجته كيف استطاع أن يملأ بيته بذخيرة من السلاح تكفي لتجنيد كـل سكان المدينة •• وأنهم ألقوا القبض عليه •• وأنهم •• حكموا عليه بالاعدام •• وأنه ••• وقاطعته بقولى : « كفى •• كفى •• أتذكر الرجل الوسخ الذى كان يعانقنى قبل قليل •• ؟ » فاهتزت بنا السيارة وهى تقف ، والتفت إلي وهو يسألنى : « لا ••• !؟ » فأجبته : « انتبه •• ! نعم •• انه هو ••• » وأعـاد تحـريك السيارة من جديد ، وانطلق من غير أن يقول لي أي شىء آخر في حين ظلت زوجته فاغرة فمها ••

1967 — 1 — 8

الف فرنك

تأخرت في البحث عمن يقرضني مالا لشراء الدواء لوالدي المريض ، ولم تكن الامطار لتهدأ قليلا حتى تسمح لدراجتي بالاسراع الى مقر الاجتماع ، لذا وصلت متأخراً •

كل الاخوان الذين ودّعتهم فى الاسبوع الفارط مجتمعون هنا ، ملتفون حول مصباح الغاز ، وأحدهم يحاول أن ينهي حديثه وهو يحييني بهزات من رأسه •

كان علي أن أحدثهم عن سياسة منظمتنا تجاه وحدة المغرب العربى ، والاراضى الفلاحية المسترجعة من أيدى المعمرين ، وتوزيعها على الفلاحين ، والتصميم المحكم لاستغلال هذه الاراضى بتنوع الزراعات فى كل أقطار المغرب ، حتى تتكافأ المنتوجات وتذر على المواطنين خيرات بلادهم ، التى لم يكونوا يستفيدون منها من قبل •

وفعلا ، شرحت الموضوع شرحا مبسطاً للغاية ، منتهياً الى التذكير بأن بلادنا ستعرف عهدا جديدا يضمن حرية الجميع ، تلك الحرية التى أساسها العلم ، والصحة ، والثراء •• ليصبح المواطن موفور الكرامة يتمتع بجميع حقوقه ويؤدى واجباته فى أمن وأمان ••

كما لم يفتنى أن أسرع فى سؤالهم عن الامور التى لم يفهموها ، حتى لا أفاجأ بالسؤال الذى يطرح على عادة : « وماذا ننتظر لتحقيق كل ذلك •• ؟ » وحتى لا أضطر الى إجابتهم بأنه

لا بد لنا من توعية جميع المواطنين ، فجميع الحلول تفرض نفسها عن طريق الوعى • وفاجأنى أحد الاخوان كان طيلة الوقت منشغلا بتنظيف أظفار يديه ، قائلا : « كل الكلام الذى سمعناه فهمناه جيداً ، ولكن •• » والتفت أنا إلى الاخوان أنقل نظراتي من واحد لآخر حتى لا يبدو علي الاضطراب الذى أشعر معه بأننى متخلف عنهم رغم ثقافتى وشهاداتى كلما آفاجأ بأسئلتهم التى لم أكن في مستواها •

وسمعت صاحبنا يقول : « ولكن الى أي حدّ أنت صادق فيما تقول ؟ كل هذه الهكتارات التى حدثتنا عنها ، ألا تكون مثل شبيهها الفوسفاط •• ؟ »

واستفسره آخر : « ما قصة هذا الفوسفاط ؟ •• »

والتفت إليه يشرح له أفكاره التى لم أكن أشك مطلقا في صدقها ، وأحاول وأنا أتتبعها أن أجد لي مخرجا •• ثم قال صاحبنا معقبا : « لقد عرفت ، قبل الاستقلال ، شابا كان يسامرنا، كان فى مثل سنك ، وكان هو الآخر يملك دراجة ، يقدم الينا في احتراز شديد ، وكان فقيرا لا يملك شيئا ، ويحدثنا حديثا شبيها بالذى تحدثنا عنه الآن • كان يقول لنا بأننا عند ما نحصل على الاستقلال فان لكل واحد منا الحق فى ألف فرنك يوميا من عائدات الفوسفاط ، التى تذهب الى جيوب المستعمرين ، غير أننا عند ما حصلنا على الاستقلال ، لم نحصل على ألف فرنك ، وان الذى كان يحدثنا عن ذلك لم يعد فى الامكان التحدث اليه ، فلقد تحسنت حاله بشكل لم يكن يخطر لنا ببال من سيارة فخمة ، ومنزل فخم ، وخدم ، و •••• »

ولم أسمع بقية الحديث ، فلقد شعرت بخجل لم يسبق لي

أن عرفت مثله •• فأنا لم أكن أتوقع أن أقف يوماً ما موقفاً مماثلا•• انني أبدو الآن أمامهم وكأنني أضحك على وجوههم الشاحبة المعروقة ، واستغل جهلهم للحصول على وضعية أحسن •• ولم أجد جوابا عند ما كانوا يتطلعون إلي •• إن عيونهم اللافحة تحفر في نفسي أغوارا سحيقة ، تظهر عجزي ، وتفاهة ألفاظي •

كيف أستطيع أن أقول له اننا لسنا في زمن نغري فيه الناس بألف فرنك . بل نحن أمام مسؤولية عظمى إذا لم نكن في مستواها فسنعرف مستقبلاً مظلماً ، وسنظل في تخلف ولن يخرجنا منه الا الوعي والعمل الشيء الذي نحن من أجله مجتمعون هنا •• أي كلام أستطيع به أن أشرح أن على عقليتنا أن تتغير ، وأن تنظر الى أبعد من الحلول السريعة المرتجلة ، وتومن بالتخطيط والتصميم ، والعمل في سبيل توعية جميع المواطنين ، اى كلام استطيع به ان انفذ الى فؤاده لاظهر له مدى الهوة السحيقة التى تفتح فمها لابتلاعنا جميعا ، اذا نحن لم نقف في وجهها كرجل واحد ان اعداءانا لنا بالمرصاد مستعذون لنا بجميع الرذائل والمذلات ، فلا قيم أخلاقية ، ولا كرامة ، ولا عزة •• أي عالم مظلم سننفتح عليه اذا لم نسارع فى محاربة اللامبالاة والاستغلال والاقطاع •

يا إلهى بأي شيء أجيبه ، عيونهم جميعا تنظر إلي ، تنتظر مني أن أنحو باللوم والتوبيخ على من كانوا يعتمدون في تبسيط أفكارهم الى حد لا يطلب من الانسان أي عمل مقابل ألف فرنك من الفوسفاط • ولكنني ما كنت لاقول شيئا من ذلك ، فلقد عوّدت « جماعتى » عدم السباب والتهريج ، فخطة منظمتنا تنطلق من التوعيه واستعمال العقل ، وللرد على صاحبنا لا بد من وقت طويل للشرح ، وسأفعل فى الوقت المناسب ، أما الآن فأنا فى أشد الحاجة

إلى العودة الى بيتى ، فما يزال أبي ينتظر منى الدواء ولا أرغب الآن الا فى الخروج بعد أن انهيت مسامرتى . ولكن أين المفر .. ؟

اعتملت فى نفسى أفكار كثيرة مشابهة ، أبتهل إلى نفسي أن تسرع فى الفرار ، ولكنها لم تطاوعنى ، فأنا مسمر الى هذه الوجوه المعروقة ونظرات عيونهم الحادة ترجونى أن أشفي غليلها ، وأظل أنا عاجزا عن القيام بأي شيء .. كل ما صنعت أننى نظرت الى ساعتى بصورة عفوية ، وتململت فى مقعدى ، ثم سمعت صوتا من أقصى المجلس يقول لصاحبنا : « اذا كنت ما زلت تنتظر ألف فرنك فسيطول بك الانتظار ، إن الاخ (يقصدنى أنا) لم يحدثنا عن دراهم ، بل شرح لنا الامور التى نجهلها .. إننا رجال مبادىء ، لا رجال فوسفاط .. واذا كنت ترغب فى الكسل وتنتظر أن تأخذ الف فرنك فابحث لك عن عمن يساعدك على ذلك .. » وقام مودعا ، ثم انصرفنا ، الواحد تلو الآخر ، وأنا لا أصدّق نفسي من هذه السرعة المفاجئة التى تمّت بها الاجابة المقنعة .

وامتطيت دراجتى مسرعا جهد الامكان لأحمل لوالدي الدواء ، وحبات المطر تبلل وجهي ..

1968 — 6 — 25

عودة الغريب

إذا عاد مسرعاً ، وحزم أمتعته فذلك يعني أنه سيغادر هـــذه الحجرة الى الابد ، ولكنه لحد الساعة لم يفعل ، فأمتعته القليلة التافهة لا زالت متبعثرة فى الغرفة ، وهو لا يزال على حالته منذ أمد طويل يغادر البيت كل يوم ، علّه يعود مسرعاً فيحزم أمتعته ، ويغـــادر المدينة نهائيا •

لم يكن فى انتظار صدفة حسنة ، ولكنـــه كان فى انتظـــار أمر •• إن الأوامر عادة منفرة ، ولكن الامر الذى ينتظره يختلف عن ذلك ، اذ به سيلتحق بنفسه ، ويشعر بأن لديه شيئا يقال لـــه الكرامة ، وانه بشر كبقية البشـــر •

يستطيع غيره ان يتكيّف مع هذا الجو الذى يعيش فيه ، ويتخذ له فى هذه المدينة أصدقاء •• وعادات •• وهوايـــات •• وعدة أشياء أخرى ، ولكنه عنيد فهو هنا منذ أمد طويل ، وكأنه نزل فى هذه اللحظة بالذات •••

قد يكون من الضرورى جدا أن يظهر متعاطفاً مع الذيـــن يصادفهم يوميا ، ولكنه لا يفعل،حتى أنه يبدو ، فى نظرهم ، رجلا جلفا لا أخلاقيا، وهم لا يخفون عنه ذلك،سواء فى نظراتهم المكشرة، وفى المعاملة القاسية التى يعاملونه بها ، ولعل ذلك رغبة منهم فى أن يلين شيئا ما ، غير أنه كان يعجبه منهم ذلك ، فلقد وفّروا عليه عدم التكيف ، وبذلك ابتعد عنهم كل البعد ، وبادلهم نفس المعاملة ونفـــس القســـوة ••

أحيانا يبدو له أنه خاطىء فى تصرفه هذا ، إذ ينبغى للمرء

أن ينسجم مع الظروف ، وبذلك لا تنفصم حلقة من حلقات حياته، فأيام حياته التى يقضيها هنا من غير أن يتعاطف معها تمر أمامـه فى رتابة ، وكأنها شيء أجنبى تماما •• ولذا يعتبر نفسه خاطئـاً فى هذه المعاملة القاسية التى يعامل بها نفسه •• إنها أولا وأخيرا حياته هو ، ولا تخص أحدا بالقدر الذى تخصه هو •• ولكنه يعود إلى نفسه فلا يجد بين يديه سوى هذا التصرف اذا ما هو أحب حقّا مغادرة هذه المدينـة ••

ان الشيء الذى نقدسه ، عادة ، فى الابطال هو حرصهـم الشديد على تنفيذ خططهم ، وعدم السماح لليأس أن يتسرب الى يقينهم ، واذا كان متواضعا الى حد لا يطلق على نفسه اسم بطل ، فانه يسمح لنفسه على الاقل بأن يتحلّى باحدى ميزاتهـم ، وأن يظل عنيدا كل هذه المـدة •

انه غريب عنهم ، وهم لا يعرفون عنه شيئا ، حتى اذا ما ألقى عليه أحدهم أسئلة تتعلق بحياته ، وعما يقوم به ، كان يجيبه اجابات عائمة ، تتخلص في أن ظروفه قاسية ، وأن عليه أن يتلاءم مع العمل الذى هو منوط به ، ولا بد من انهائه قبل أن يعود الـى بيتـه •

واذا ما حلى لاحدهم أن يطمئنه على العمل الذى لا ينتهى أبدا ، وأن الدنيا لا ينبغي أن تأخذ بالشدة ، وأن المرء مهما حاول أن يكون مثاليا فى عمله فانه لا يستطيع ، كان هو يبتسم فى داخله، اذ أن كلاما مثل هذا لم يعد يجد فى أذنه أي منفذ ، وأن السبيـل الذى يسلكه لا يقبل منه أي تهاون ، وأن عليه أن يأخذه بشدة، وأن يؤديه على أحسن وجه ، حتى يضمن عودته الى أبنائه ، وهـو

مطمئن على مستقبلهم ، الذى لن يعرف أفكارا مماثلة تلقى هكـــذا لتثبيط الهمم • والمرء مطالب بالعمل على أحسن وجه ما دام يعرف نتائجه ومردوداته التى تعود عليه وعلى أسرته •

كان يتهرب دائما من الاجابات الصحيحة على أسئلتهم بأن ظروفه قاسية تحتم عليه أن يعمل كثيرا ، ولا يدخل معهم في أي نقاش ما دام يعرف أن هذا ليس من مهامه ، فمهما استبدت بـــه رغبة فى توضيح أفكاره أبعدها عنه عند ما يتذكر بأنهم طلبوا منه العمل والصمت ، فالامور ستسير على أحسن ما يرام اذا ما قام كل بما هو مناط به ، لذا يحتفظ لنفسه بأفكـــاره فارا من الاجابـــات الصحيحة بادعاءات مختلفة ، لا تمث لواقعه بصلة •

ولكنه الآن ، وبعد أن أنهى أعمالـــه ، يشعـــر برغبـــة في التحدث بصدق ، وأن يظهر للآخرين جليـــة أمـــره ، وأن يشرح أحاسيسه وانفعالاته عند ما كان يؤدى عمله • غير انه مرغم على أن يبعد عنه التفكير فى ذلك وأن القضية أولاً وأخيراً قضية ضعف إنسانى وعليه أن يتغلب عليه • فهو ما دام قـــد اكتسب عادتـــي القسوة والعناد فليظل محتفظا بهما الى أن يغادر المدينة ، ويلتحق برفاقه ، وبأسرته وأولاده •

مهمته انتهت • وشدة حنينه الى بلده تمتلك عليه أنفاسه ، وأوامر رفاقه لم تصل بعد •• انه لا يأخذه شك فيهم ، فهـــم لـــن ينسوا مطلقا وجوده هنا •• ولكن الزمـــن يسير ببطء شـــديـــد ، يثقل على كاهله • لقد انتهت مهمته هنا التـــى أمضى فيهـــا وقتـــا طويلا من غير أن يفكر فى أية لحظة من الزمن الذى تأخذه منه • ولكنه الآن وبعد أن انتهى يعتقد أن كل ثانية تمر كأنها قـــرن من الزمن • « ايها الرفاق عجلوا •• عجلوا •• فأنا على أحـــرّ مـــن

الجمر •• » مرارا ردد ذلك فى نفسه ، ولكنه لم يكن يسمــع إلا رجعها فى زوايا دماغه من غير أن يتلقى أوامر ترجعه إلى بلده •• وأمتعته القليلة التافهة لا تزال مبعثرة ، فى الغرفة ، وصوته الباطني لا يزال يردّد : « أيها الرفاق عجلوا •• عجلوا •• »

1968 – 4 – 19

مؤامرة

يشعر بأنه غريب عنهم ، بل أكثر من ذلك يشعر بأُنهم يعتبرون وجوده غير مرغوب فيه ، وأنه يحشر أنفه بينهم ، وأن عليه أن يتصرف تصرفا آخر غير هذا إذ لا حاجة لهم به ، ولكنه عند ما يغير سلوكه معهم وهو يرجو من وراء ذلك أن يرضوا عنه ، يجد نفسه مضطرا الى أن يغيّر من لباسه ، وحتى هذا عند ما يغيّره ، يدرك أنهم يطلبون منه أن يتغير تماما ، ولا يدري كيف •• كيف يصنع من نفسه انسانا آخر ليقبلوه بينهم •

ويعتقد أن ذلك مرجعه إلى أنه لا يقدم لهم أي خدمة ولذا فهم لا يعتبرون وجوده ضروريا ، ويبحث عن مناسبات ليقدم لهم خدماته وليظهر لهم أيضاً نيّته الحسنة ، غير أنه يصاب بخيبة في كل خطوة يخطوها •

ماذا يريدون ؟

كل الاحتمالات الممكنة للاجابة على سؤاله يدخلها حيّز التطبيق ، ولكن صدودهم عنه يقلقه ، يؤلمه •

لأَن يوجد المرء بالرغم منه فهذه مصيبة كل فرد ، ولكن أن يوجد ولا أحد يهتم به ولا يعتبره ضروريا فهذه أكبر المصائب••

جرب أن يبدو أمامهم قوياً •• لم يفلح ••

أعاد الكرة وجرّب أن يكون مسكينا ضعيفا كذلك لم ينجح••

لقد حكم عليه نهائيا ••

من هذا الذى يمنحهم هذا الحق •• ؟ أن يحكموا عليه ،

ويلقوا عليه بأوامرهم فنطاع . وتلبى فى أقرب حين .. من هــذا الجــائــر .. ؟

لحد الساعة لا يدرى ..

يتطلّع الى نفسه عبر واجهات المحلات التجارية يقــارن نفسه بهم ، فلا يجد أي اختلاف بينه وبينهم ، بل انه واحد منهم تماما .. إن الاجنبى عن بلاده لن يستطيع أن يميّزه عنهم ، كما لا يستطيع هو أن يميز بين صينى وصينى آخر ، مــع أنهــم فى الصين متمايزون ومتباينون ..

خطواته مثل خطواتهم ، يداه تتحركان فى جانبيــه كمــا تتحرك أيديهم ، شعر رأسه مثل شعرهم ، ثيابــه لا تختلف عن ثيابهم ، ولكن .. كل هذه المظاهر الخارجية لم تفلح في أن تجعله واحداً منهم .. وأنه غريب ولا ضرورة لوجوده وأن شيئــا مــا خفيّاً يجعله بعيداً عنهم كل البعد ..

ويخطر بباله أن يصيح بأعلى صوته : « إنني هنــا .. انظروا .. أنا .. أنا .. هنا » فلعــل ذلك سيثير فضولهـــم ويتجمهرون من حوله ، وبذلك يوقفهم ويتطلع اليهم ، وعنــد مــا ينظرون اليه ، سيبصر بريق عيونهم التى كانت تتلافاه وكأنه لا شيء .. ولكنه أرجأ ذلك الى أن يفكر فيه بصورة أكثر جدّيــة ، فلربما اعتبروه مجنوناً .. وبذلك سيفــرّون من حولــه بــدل أن يمشوا الهوينا بجانبه ..

لكل مدينة شارعها الطويل الفخم ، ذى الواجهات الانيقة ، وهذا شارعنا ، نقطعه عدة مرات فى المساء من غير ما مناسبة الا لان نرى بعضنا البعض ، ولكن لا أحد يهتم بالآخر ، أو على الاقل لا يهتمون به . هو لا يريدهم أن يقبلوا يديه فهذه عادة يكرهها من

كل قلبه ، ولا أن يعانقوه كلما رأوه ، لا •• ولا أن يلقـوا عليـه بالسلام ، ولكن ألا يعاملوه مثلما يعاملونه الآن •

ان المرء يدرك من نظرات الآخرين أن هناك رابطة تربطه بهم ، وأنه ليس أجنبيا عنهم ، وأنه واحد من هؤلاء عباد الله الذين يدبون على هذه البقعه من الارض ، تجمعهم وحدة اللغة ، والتاريخ المشترك ، والشارع المشترك ، ولكن عيون هؤلاء لا أثـر فيهـا لأي معنـى •• جفاف ••

الى متى •• ؟ الى متى هذا الجفاف ؟

وتمنّى أن تمطر السماء مطرا يخصب الارض ، وضحك من أمنيته هذه ، اذ اعتبرها لا محل لها فى هذا الذي يقلقه • ولكنـه بعناده أعاد التفكير فى أمنيته ، ووجد أنه صائب فيها ، فلعـل الخيرات التى تصاحب المطر ستبعد عن هؤلاء تكشرهم وتلهفهم على مشاغلهم ، وبذلك يسمحون لأنفسهم بان يروا كائنا مثلهـم يمشي بجانبهم •• ولكن عند ما أمعن التفكير فى ذلك ، وجـد أن الخيرات لن تصيب جيوبهم ، وأنهم هم أيضا محكوم عليهـم بأن يظلوا هكذا ، وأن من أخبره بأن جميع من فى المدينة يعامل غيره مثل هذه المعاملة صادق كـل الصدق فى ذلـك •• فالانانيـه ، والتكبر ، والخيلاء ، وكل صفات الصلف التى يتحلّون بها ، إنما هي غطاؤهم الواقى ، الذى يحميهم من أن يرى الآخرون ضعفهم•• لقد ذهبت براءتهم ، وطيبوبتهم ، وساروا فى الاسواق يدفعهـم تكالبهم ولهفتهم لاقتناء أحسن الاشياء بأقل الاثمان •• وحرصهم على ألا يقوموا بأي عمل مقابل أرباح طائلة •• هم أيضا كانـوا مثله يتعاطفون ، ويتواددون ، ومن عيونهم كان يبدو بريق لامع ، فيه دفء وصفاء ، ذلك ما حدثه به أحدهم ، وأضاف ينصحه بأن

لا يغالى فى القسوة عليهم لأنه ، حتما ، سيغدو مثلهم في يــوم مــن الايــام ••

ـ « لا •• ولكنهم لماذا هم هكذا ؟

ـ لقــد قلت لك ••

ـ لا •• إن هناك شيئاً آخر هو الذى لا شك تركهـــم يتصرفون كما لو كانوا دُمىً في أيدي صبيان ••

ـ ربما •• وفى هذه الحال ليسوا بين أيدى صبيان،بل قل بيــن أيــدي رجــال ••

ـ وهم ؟ أليسوا رجالا •• ألا يستطيعون أن يتصرفوا في أنفسهــم •• ؟

ـ لقد قلتها بنفسك لقد كانوا يتعاطفــون مــع غيرهــم ويتــوادون ••

ـ حسنــا •• »

حواره وقف عند هذا الحد •• أما هو فلم ينته بعد ، بل لا يزال يتخذ من دماغه ملعباً لكرة القدم ••

ويتذكر يوماً شاهد فيه مباراة فى كرة القدم •• كاد حماس المتفرجين يطير بصوابه ، ووجد ضالته أخيرا •• انه هنا يوجد بين أناس مثله ، ينظرون اليه ، يحدثونه ، « كان من الممكن لو ••• أن يصيب الهدف •• الحَكَم •• خاطىء فى ذلــك » •• صفيــر وصياح متعال •• لم يملك يومها نفسه بل صاح هو الآخــر •• تحدث إلى كل الذين حوله •• منح تصفيقاته لهــذا ، وصفيــره لــذاك ••

وشعر بارتياح ، فالكابوس الذى يجثم عليه زال عنه هنا •• ففى الميدان الرياضى لا يزال الناس فيه يتعارفون ويتوادون ••

غير ان ارتياحه هذا لم يطل فبمجرد ما أن انتهى اللعب حتى أخلى المتفرجون الملعب فى لمح البصر ، لم يهتم به أحد •• الجالسون بجانبه تلافوا نظراته التى كان يصحبها بابتسامة •• بعضهم نظر اليه فى توجس •• حذر •• خيفة •• ماذا أصاب القوم •• ؟ ممن يحذرون ؟ وممن يخافون •• ؟

ــ أنت •• قل •• ممن يخافون •• ؟

وجهها لرجل كان يقبل نحوه •• ابتعد عنه الرجل فى هلع من غير أن يرد عليه ، ثم استدار لينظر اليه ، لم يتوقف عن سيره، بل كان يلتفت اليه من حين لآخر وهو يسير إلى أن ابتعد • أما هو فبقي فى مكانه ينظر اليه فى استغراب ، وردد فى صوت منخفض : « انهم يخافون •• انهم حذِرون •• » ثم لم يلبث أن أطلق ضحكة ساخرة • وعند ما استأنف سيره أخذ يفكر : « ممن •• ؟ » لا شك أنهم مذنبون •• وإلاّ لِمَ الخوف •• الرجل البرىء لا يخاف أحداً •• وهؤلاء أهم مجرمون حقا •• ؟؟ »

❋ ❋ ❋

عند ما كان رجال الشرطة يمسكون به ، لأنه أقلق راحة المواطنين بتدخلاته فى شؤونهم ، واعتراض سبيلهم • قرأ في عيون المارة أن فى هذه البلاد لا تزال العدالة تأخذ مجراها ، وأن رجال الامن يمسكون بكل من يريد رفع الغطاء • وخمّن شيئاً آخر أن هناك مؤامرة تدبر نحوهم فى كل لحظة وهم عنها غافلون ، وسيأتى يوم يقفون فيه موقفه هذا عند ما يكتشفون ذلك •

1968 — 8 — 17

خطأ...

استدعاه رئيسه المباشر ، وأنّبه على أخطائه ثم صرفه عنه قائلا : « لا تقل لي مرة أخرى بأن الخطأ من الآلة الحاسبة .. إنك هنا لمراقبتها ولإعادة العمليات الحسابية من جديد ، وحين يقع منها خطأ ، يجب أن تصلحه حالا .. لأنك إنسان .. لا آلة .. هيّا .. انصرف .. »

ولم يدر كيف انصرف ، ولكن الشيء الذى يؤكد له ذلك هو أن بيْن يديه الآن الاوراق التى سلمها لرئيسه صباح أمس ، وبها خطأ ، وعليه مراجعة الخطأ لأنه انسان ، والانسان لا يقع فـى الخطأ كالآلة الحاسبة .. واذا كان رئيسه يصرح له بذلك ، فإنـه لا يعني إلا أن عليه أن يقوم بعمليات حسابيـه طويلـة ليكتشف عـن الخطـأ ..

وارتمى على مقعده ، ووضع الاوراق على طاولته ، وأخذ قلم الرصاص يتابع به الاعداد وهو يبلع ريقه من حين لحين .

وعند ما دخل عليه زميله فى العمل مبتسما يطلـب منـه ارشادات حول موضوع ما رأى أنه لم يرفع رأسه عـن الاوراق فأدرك أن زميله فى مأزق فانحنى عليه قائلا : « خطأ .. خطأ آخر يا مجيد ؟ » وحرك رأسه بالايجاب .. فابتعد عنـه الزميـل في هدوء ، وهو يقول : « الله فى عونك ... » وأقفل الباب من خلفه بكـل هـدوء ..

وتراقصت الارقام أمام عينيه ، وأحس بدماغه يدور ..

وأدخل يده فى جيبه باحثا عن سيجارة من غير أن يتذكر أنه لم يعد يدخن منذ أسبوعين راحة للاعصاب وللجيب ٠٠ ولكن أزيزا حادا كان يفعل فعله فى تلافيف دماغه ، وأن عليه أن يسكته بشىء ما ٠٠ وتذكر نصيحة أحد الزملاء ، فوقف الى النافذة وفتحها مستنشقا مزيدا من الهواء ٠٠ وبدا له الطرف الآخر من الادارة في حركة النمل : جموع من الناس تدخل وتخرج ، تبينها علّه يرى فيها أحدا يعرفه ، وتمنى أن يجد صديقا قديما يفضى إليه بما يملأ جوانحه ولكنه لم ير منهم أحدا ، بل تخيل أنه يرى بين هذه العمائم البيضاء شخصا واحدا يحملها جميعا ، وأن هذه العمائم أصبحت عمامة واحدة بها بقع وسخة هنا وهناك ٠ والجلاليب التى حرص أصحابها على أن تكون مناسبة لادارة مثل ادارتهم لم يفلحوا في أن تكون بيضاء ناصعة ، لأن ترددهم على الادارة جعلهم ينسون الاهتمام بها ولا ينظفونها من حين لحين ٠ ولكنها كانت على العموم خير ما يملكون ، وهم يرتدونها حتى يكونوا أهلاً لهذه القروض التى تعبوا فى الجري من ورائها ٠

وعاد يجلس فى مقعده، باحثا عن هذا الخطأ اللعين ، وقلم الرصاص بين أنامله يغلي لينقض عليه ويشجبه تماما٠٠ لا٠٠ لا٠٠ لم يعد يستطيع التفكير ٠٠ لا بد أن ضبابة باهتة تغشى بصره ، وأن عليه أن يقوم بأي شىء ليبعدها عنه ٠ ورفع بصره عن الاعداد ، وقد استقر القلم بين أسنانه كلفافة تبغ ٠ وما لبث أن شرد فكره :

« هو الآن على مقعد الدرس ، وربما فى احدى الامتحانات المهمة ، التى كان يعقد عليها أملا كبيرا فى الخروج من مرحلة

التعليم الثانوي إلى التعليم العالى ، ولعل مستقبلا زاهرا يفتح له ذراعيه ليحتضنه ، كما يحتضن المجدّين من أمثالــه ، هــؤلاء الذين يجتمع معهم ليتدارسوا شؤون بلادهم ، ويخططوا لهــا ، وينتقدوا سياستها فى التعليم والفلاحة وأشياء أخــرى كثيرة •• وحماسهم لا يفتر الا عند ما يتهيأون لاجتياز امتحاناتهم ، وما أن ينتهوا منها حتى يدخلوا إلى مؤتمرهم العام وهم أكثر نشاطا ، وأصلــب عــودا •

« لم يكن يعكر عليه صفوه الا ما يسمعه من أسرته ، تلك الأفكار التى كان يعارضها ، ويبذل جهــدا كبيرا فى افهامهــم أن أفكارهم من مخلفات العهد البائد ، حيث كان المستعمر يفرض على الناس ألا يتدخلوا فى السياسة • أما فى عهدنا نحن فالسياسة أحد أركان تفكيرنا ، لا يلزم التخلي عنها بوجه من الوجوه ، لان البلاد بلادنا ، ويجب على كل مواطن أن يهتم بما يقع على أرض وطنه حتى لا يترك المجال فارغا للانتهازيين والعملاء ، الذين لا يهمهم الا الكسب السريع ولو على حساب وطنهم • واذا كان بعض أفراد أسرته يقتنع بما يقول فان أمه واخواته لم يكنّ يوافقن على ذلك ، اذ الشيء الذى يهمهن ، هن أيضا ، هو الكسب السريع والصعود الى أعلى المراتب فى أقرب الآجال ، حتى يجدن فرصة ليظهــرن للاخريات من أفراد الاسرة أن ابنهن (مجيد) يحمل عددا كبيرا من الشهادات العليا ، وأنه يملك « الفيلا » الجميلة ، والسيــارة الفخمة ، وأنهن يقضين المطل فى المصاييف البعيدة ، وباختصار أنهن من الاسر الغنية ذات المقام الرفيــع •

« لعل هذا بعض الذى كان يعكر صفو خاطره وهو يتقد نشاطا وحماسا ، حتى أنه كان يخيل إليه أن العالم سيتغيّر بمجرد

ما يخرج هو الى الحياة العملية بشهاداته الجامعية • بل يعتقد فى ذلك اعتقادا راسخا ، والا ، لماذا يوجد الشباب اذا لم يكونوا من أجل التغيير الى ما هو أحسن •• ؟ الفلاح الذى كان يشقى في أرضه وأرض أجداده ليسعد الاجنبى عن هذه الارض لا بد أن يحصل تغيير فى حالته هذه ، يلزم أن تعاد الأمور الى نصابها ، الارض لمن يحرثها • لا لمن يتسلّط عليها ، والتعليم يجب أن يعمم على سائر المواطنين ، وخيرات الوطن يجب أن تكون من حق الجميع لا لفئة قليلة متسلطة •• هذه هى المبادىء التي كان يشعر بثقلها على كاهله يوم غادر الدراسة •

« وكانت وسائله تتلخص في اقناع خصمه بالحجج الدامغة ، وفى العمل الجدّي المتواصل لنشر الوعي بين سائر الناس ، وهى وسائل كما يعتقد معقولة ، وسليمة ، وفي ذات الوقت لها فعّاليتها ••• »

ونَقَرَ أحدهم باب مكتبه ، ولكنه لم يسمعه ، فقد كان لا يزال فى شروده وأن شيئا ما لا يزال يبعده عن أن يكون هنا بكل جوارحه •

فقد تغيرت سحنته ، واكتنفه شحوب ، وغارت عيناه في محجريهما ، وغدا بئيسا فى حاجة الى شفقة ، ولكن الذين من حقهم أن يشفقوا عليه كانوا يتألمون عند رؤيته ، فهو لم يحقق لهم لا الفيلا الجميلة ، ولا السيارة الفخمة ، ولم يخرجهم من زقاقهم الحقير إلى أي مصيف بعيد ، ولم يرفعهم الى مقام الاسر الغنية الرفيعة بل لا يزالون كما كانوا قبل ميلاده ، وأنه يقرأ فى عيونهم مسؤولية الصعود بهم الى حياة أفضل • وأنهم يتحملون وجوده بينهم بالرغم منهم ، اذ ربما لو قطع عنهم مساعدته المالية التى

يحملها لهم كل شهر لكان مصيره معهم الفراق إلى الابد ..

وحتى الفلاح لا يزال محروما من ارضه ، وهو الآن فـي ادارته هنا يستجدي قروضا ليعيل بها أسرته قبل أن يحرث بهـا أرضـه .

وحتى التعليم لم يقع فيه أي تحسن ، بـل وقعت فيـه تغييرات متعمدة لاحداث البلبلة وغموض المستقبل .

وخيرات البلاد لا تزال بين أيدي فئة متسلطة . والضمائر الحيّة تشترى في مزاد سرى . وضميره هو عليه ضبابة باهتة لا يدرى بأى شىء يستطيع إبعادها .. اذ وسائله ضعيفة ولم يكن مهيئا لغيرهـا ..

وهو الآن فى مكتبه بين أرقام .. بها خطأ ، كما فى تقديراته وتقديرات رفاقه خطأ .

واستعادت أنامله القلم ، وانكب هو ببصره على الارقام.. وكأنه سمع نقراً على الباب فقام يفتحه ، ولكنه لم يجد آحدا .. ثم عاد من جديد الى أوراقه .. ثم عادت اليه الضبابة تغشي عينيه، ولم يشرد هذه المرة ، بل عرك عينيه بيديه ، وفتحهما وأقفلهمـا عدت مرات . واستشاط غضبا عند ما تذكر كلام رئيسه الذى ذكره بأنه ليس آلة ، وزمجر فى خاطره : « حقا ، لست آلة ، أنا انسان، وعلى أن أدرك الخطأ ، وسأقوّمه حالا .. » وخاض غمار عمليات معقدة ، لم يخرجه منها الا رفيقه الـذى عاد من جديـد يطلـب مسـاعـدتـه .

وقرأ بعض الفقرات مما حمله معه من أوراق ، وأرشده بما يجب عمله ، من غير أن يلقي بالا لتشكراته . ولكنـه توقف عـن التفكير من جديد فى العمليات الحسابية عند ما أقفل الصديق الباب

من ورائه ، وقام الى النافذة ينظر الى حركة النمل الابيض ويداه خلف ظهره ، وكأن لا شيء يشغل باله ..

ولم يطل وقوفه كثيرا ، اذ ما لبث أن دخل عليه رئيسه فى غير ما احترام ، وسأله :

ـ هـل انتهيت ؟

ـ لا ..

ـ ولماذا .. ؟

ـ لست أدرى .. إن شيئا ما يمنعني هذا الصباح من العمل ..

ـ لا شك أنك تستفزّنى ..

ـ لا .. مطلقا ..

ـ ولكنك تعلم اننى فى حاجه الى هذه الاوراق لأقدمها الى السيد الرئيس .

ـ أعلم ..

ـ تعلم ومع ذلك لا تفعل ..

ـ لقد قلت لك .. اننى لم أستطع العمل . .

ـ وماذا تفكر أن تعمل .. ؟

ـ ماذا ؟

ـ اذا ما فصلت من عملك هنا ..

ـ لم أفكر فى أننى سأفصل ..

ـ لا .. ؟ لم تفكر فى ذلك ؟

ـ مطلقا .. لأننى اعتقد أننى أؤدى عملى قدر المستطاع ..

ـ لا .. انك لا تعمل .. أنت تتفرج على الناس من النافذة ..

ــ لأستريح بعض الشيء ..
ــ كأنك تعمل كثيرا وفى حاجة الى راحة ؟
وعند ما هزّ كتفيه قليلا اظهارا لعدم استطاعته تفسير حالته نظر اليه رئيسه شزرا ، وخرج يقفل الباب فى قوة ..
وظل هو جامدا فى مكانه .. ولاول مرة يتخيل فيها نفسه وكأنه لا يملك الا رأسا قد ثبتت فيها قدمان ويدان .. ولا شيء غير ذلك ، حتى انه عند ما أحب أن يخطو بضع خطوات بداله انه يتدحرج ، وتوقف قبل أن يصطدم بأي شيء ، ولعلهم اذا دفعوا به من وراء سيظل يتدحرج حتى باب الادارة ككرة قذفت من أعلى الدرج ..
وفكر فى أسرته بعد أن يعود اليها وكأنه كرة ، لا يسنده أي راتب شهرى.ألا تقذف به هى الاخرى الى الشارع ..؟
وارسل الرئيس فى طلبه ، وتدحرج هو عبر الباب إلى مكتب الرئيس .. وعند ما سأله من جديد : « هل انتهيت .. ؟ »
شعر برغبة جديدة فى أن يضع يديه على أذنيه ، وأن ينطوي على نفسه ، وان يأخذ فى التدحرج من تلقاء نفسه ، من غير أن يرد عليه ، ولكنه سمع من جديد صوت الرئيس يقول : « أعد إلي الاوراق لأراجعها بنفسي .. » وخرج ثم عاد بها اليه ، وظل واقفا أمامه ، الى أن تضايق منه الرئيس ، فصرفه إلى مكتبه .
واستقرت الكرة أخيرا فوق الكرسى .. ونظر الى مكتبه الفارغ فشعر ببعض الارتياح . وما أن لذ له ذلك قليلا حتى دخل عليه رفيقه : « هل انتهيت؟»
ــ لا .. لقد أخذها ليقوم باصلاحها بنفسه .
ــ ما كان عليك أن تصنع هذا ..

ــ كنت تبحث عن صديق تطلب مساعدته •

وانقشعت الضبابة الباهتة عن عينيه ، انه ليس وحده هنا، بل له رفاق يعملون مثله ، وأنهم كلهم هنا •• تذكرهم •• واحدا •• واحدا •• واحدا ، اهتموا كلهم بأنفسهم ، التحقوا بالعمل ، تركوا أفكارهم على مقاعد الدرس وبين جدران قاعات المؤتمرات ، واهتموا بالحسابات ، يخطئون ويصلحون ، من غير أن يصلحوا خطأ هؤلاء الذاهبين والرائحين ، الذين يبحثون عن حلول لمشاكلهم من قروض وسماد وبيع وشراء ••

ووقف ينظر الى النافذة من جديد •• فرأى الرجل الكبير جدا ، ذا العمامة الوسخة ، والجلباب الذى يسعه وحده لا يزال فى حركة دائبة ، وكأنه يشير اليه مهددا بقبضة يده قائلا : « لقد خذلتموننا •• لقد خذلتموننا •• »

وصاح (مجيد) بأعلى صوته : « لا •• لا •• خطأ •• خطأ فى التقديــر •• »

واستغرب منه رفيقه ثم اقترب يهدىء مــن صياحــه • وأجلسه على مقعده قائلا •• « سيصلح •• سيصلــح الخطأ •• اطمئن •• لا بد وأن سيصلح •• »

ــ لمــاذا •• ؟

ــ هو لا يقبل ذلك • خذ حذرك •

ــ وماذا كان فى استطاعي أن أصنع •• ؟

وتركه منكبا على مكتبه ، وخرج بهدوء ••

1968 — 9 — 19

المعلم والطفل

لم نكن نشعر بالمسافة التى تقطعها السيارة الفخمة ، فلقد خضنا في أحاديث شتى ، من تلك الاحاديث التى يتبادلها أصدقاء ظلوا فى غربة عن بعضهم البعض منذ أمد طويل ، ولم تكن هذه هي حالتنا • فزميلى (حميد) الى سنتين خلت كان يعلم معى فى المدرسة الابتدائية الا أن قرابته من بعض الاوساط جعلته ينهج سبيلا آخر ، ذرّ عليه من المال الشيء الكثير ، وسمح له أيضا أن يتأسف على وقت قضاه فى الغفلة والاهمال •

كنت طيلة الوقت حذرا حتى لا أورط زميلى فى أحاديث تتعلق بأفكارنا الخاصة ، وإن كان يخيّل إلي أن موضوعها يحوم حولنا من غير أن نتجرّأ على أن نبدي وجهة نظرنا فى بعضنا البعض •

وتساءلت مثلما يتساءل كثير من الناس ، في أيامنا هذه ، عن كيفية تصرفهم مع أصدقاء لهم كانوا إلى أمد قصير يذهبون فى الحياة مذهبهم ، ويعملون مثلهم لغد آخر ، يختلف كثيراً عن يومهم هذا الطويل ، ولكن عجزهم عن الاستمرار يجعلهم يتخلفون عنهم فى بداية الطريق ، ويذهبون فى الحياة مذهب الاستغلال ، والسرقة العلنية ، والاثراء بأسرع وقت وبشتى الوسائل ، وبذلك يظل فى قرارة نفوسهم شعور بالخيبة وبالاجرام ايضا •

واثناء تساؤلى هذا أثار زميلى الموضوع الذى يحوم حولنا ، وتجرأ على أن يقنعني بالتخلي عن أفكارى التى كانت الى زمن قريب هي أفكاره ، وبانتهاج سبيل يعلم ، مسبقا ، أنني لن أنتهجه •

وفكّرت أن أثور فى وجهه كعادتي فى مواقف مماثلة ، ولكن صوته الرقيق الذى كان ينم عن عجز وضعف جعلنى أشفق عليه. لم يكن فى نيتي أن أشرح له وجهة نظرى فى الغد المشرق الذى ينتظر العاملين المجدين ، فهو يعرف ذلك ، ولكنني فكّرت من جديد في السؤال الذى كان يدور ببالى من قبل ، كيف السبيل الى تصرف ليس فيه احراج لنا معا بعد ان اختلفت وجهة نظرنا ؟ هل أصارحه بحقيقة الامر ، أم اكتفى بأن أنافقه ؟ وحتى هذا أيضا يعرفه ، هو سيعرف أنني أنافقه اذا ما فعلت ، ولم يبق على إلا أن أصمت .

لم أتأسف على هذه الصدفة التى رمتنى فى طريقه ليحملني الى الدار البيضاء ، بل اعتبرتها صدفة حسنة سمحت لى من جديد بالتعرف على الوسائل الجديدة التى يستعملها « الغزاة » للسيطرة على ذوى النيات الطيبة ، وقاصري النظر ، وضعيفي الارادة .. وأمعنت فيها الفكر ، لم تختلف فى مجملها عن الافكار الاساسية التى يعتمدون عليها عادة ، ولكن الشيء الجديد فيها والخطير أيضا ، هو محاولة الاسراع فى بثّ قيَم أخرى، ومثل تناسب الوضعية المهزوزة التى يعيشونها .

وتخيلت زميلى (حميد) فى قاعة الدرس بين تلاميذه الصغار يلقنهم أن المثل الاعلى فى حياة المرء هو الاغتصاب ، والسرقة ، واستغلال كل فرصة للاثراء ، من غير اعتبار لاية قيمة أخلاقية . وفي الحصة التالية من الدرس لم يجد حقيبته لانها كانت قد سُرقت ، وبدلته المعلقة داخل القسم لعبت بها الاصابع البريئة التى أقسرت على الاثراء بأية كيفية كانت ، ودراجته التى كان يقطع بها المسافة الفاصلة بين (العكارى) بالرباط و (تابريكت) بسلا سُرقت منه أيضا ، ولم يجد بدا من أن يقطع المسافة الطويلة راجلا ، وهو مقتنع

تمام الاقتناع بأن أفكاره وجدت سبيلها في النفوس البريئة من تلاميذه ، وأنه قام بواجبه أحسن قيام ٠٠!

ولم أخف على (حميد) هذه الصورة التى اعتبرتها تختصر أفكاره « القيّمة » من غير أن أنسى ، وأنا أقصها عليه ، أن أزودها ببعض الضحكات الرنانة التى كان يعرفها عنى ٠ واعتقدت أننى أغضبته ، وأن ردّ فعله سيكون ولا شك هو انزالى من سيارته فى منتصف الطريق ، وسأجدني أطلب من آخرين أن يأخذوني معهم الى الدار البيضاء لالتحق بالمدرسة صباح الغد ٠٠ ولكن شيئا من هذا لم يحصل ، فحميد يحتفظ بأعصابه هادئة ، حتى أنه قد خيّل لي أنه لم يكن يستمع لما أقول ، بل أجابنى وهو يتصنع الثقة ، بأن حياتنا قصيرة ، ويلزم أن نستغل أية وسيلة لكي نعيش ٠٠ وعند ما سألته عن بقية الناس الذين نسرقهم لنعيش ، هزّ كتفيه وقال : « هذه هى الحياة ٠٠ ! » وعند ما ذكرته بأن هؤلاء الناس سيقومون فى وجه من يسرقهم قال إن ذلك لن يتم قبل عشرين أو ثلاثين سنة ، وهذه هى الفترة الجميلة من عمر الانسان ، وعليه أن يبذل كل الوسائل ليعيشها بتمامها ٠٠ ولما سألته عن الضمانات التي تسمح بذلك له ولابنائه من بعده ٠٠ تنهّد ، وكأن قرارة نفسه اهتزت بما فيها من شعور بالخيبة وبالاجرام أيضا ، وسمح لرجله بأن تضغط على البنزين علّه يبتعد عن سماع أفكاره الدفينة ٠٠

❋ ❋ ❋

وعند وصولنا الى (الدار البيضاء) أخذ يسأل عن مكان معيّن لاقتناء بعض قطع الغيار لسيارته الامريكية ، حتى اهتدى الى صبي فى التاسعة من عمره يعرف المكان أركبه معه فى السيارة٠

وسألت الصبى عن اسمه :

ـ ادريـــس

ـ ماذا تصنـــع ؟

ـ لا شـــىء ..

ـ كم مضى عليك من الوقت وأنت لا تذهب إلى المدرسة ؟

ـ لم أدخل المدرسة مطلقا .

ومن غير أن أتخلى عن مهنة المعلم سألته سؤالنا التقليدي.

« ماذا تتمنى أن تصبح عند ما تكبر ؟ »

ولما لم يجبنى أعدت عليه السؤال :

ـ بُني عند ما تكبر وتصبح رجلا فى مثل سني ماذا تريد أن تكـــون ؟

ـ وزيـــراً ..

ـ وزيراً هكذا .. ؟ ولكنك لا تعرف القراءة والكتابة ، ألم تقل لى من قبل انك لا تذهب الى المدرسة .. ؟

ـ لقـــد سألتنى وأجبتك ..

وبعد فترة شاهدت على الحائط إعلانا عن أحد الافـــلام.

فســألتـــه :

ـ هل هو فيلم جيد ؟

فأجابنى وهو يمط شفتيه الوسختين :

ـ لا .. فيه كثير من (الكراطى) لا غير ..

وسألتـــه من بعد ذلك :

ـ هل تريد أن تصبح غنيّاً .. ؟

ـ نعـــم .. كثيرا ..

ـ مثـــلا ..

أن تكون عندى ثلاثة ملايين

ـ وماذا تصنع بها ؟ لا شك أنك تريد أن تدخل الى السينما يـومـيـا •• ؟

ـ لا ••• لقد تعبت منها كثيرا ••

ـ ومـــاذا اذن ؟

ـ سأشترى سيارة مثل هذه •• وأشياء أُخرى ••

ـ ولكنك لا تعمـــل ••

ـ هذا اذا ما أُصبحت غنياً ••

ـ أما اذا لم تصبح غنيا •• ؟

ولم يجبنى ، لقد كنت أُحرجه بأسئلتي ، لذا سكت فترة من الوقت قبل أن أستأنفها :

ـ هـــل لك آب وأم ؟

ـ لى أم متزوجة من رجل آخر ، وهو لا يحبنى

ـ ولـــمـــاذا ؟

ـ متى كان الزوج يحب ابن زوجه ؟

ـ اذا كان الابن نظيفا مهذبا يعمل بجد •• ، قل لي متى تعــود الـــى البيـــت ؟

ـ بعد منتصف الليل عند ما تنتهى السينما من العمل •

ـ ولـــمـــاذا ؟

ـ لاننـــى أتســـول

ـ اذن أنت تكسب مالا ••

ـ بعض الشيء ••

ـ وأيـــن تصرفـــه ؟

ـ على شؤونى الخاصة •

ـ ألا تأكل فى بيتكـــم •

ـ لا •• الا اذا ما احتفظت لى أمى فى تستر ببعض الاكل•

ـ مــثـــلاً
ـ خبــز ..
ـ هل لها أولاد مع زوجها الحالي ؟
ـ ثــلاثـــة .
ـ هل يحبهم أبوهــم ؟
ـ انهم ما زالوا صغارا ..
ـ وأنت ؟ ألا تحبهم .. ؟
ـ هل هناك انسان لا يحب أخاه ؟
ـ وزوجها أتحبه أيضــا .. ؟
ـ هذا لا .. لا أحبه مطلقا ..
ـ اذا أصبحت وزيرا ماذا تصنع له ؟
ـ سأقتلــه شــرّ قتلــة .

وضحك زميلي (حميد) مقهقها ، ثم سأل الصبى وهــو يلتفــت اليـــه :

ـ وماذا يصنع زوج أمك ؟
ـ (كراب) ، يحمل الماء الى البيوت .

وبعدها لم نعد نتحدث اليه ، وسبحنا فى أفكارنا الخاصة ، وانتظرت أنا أقرب مكان يمكننى أن ألتحق منه ببيتى . ثم أوقفت زميلى ، ونزلت وأنا أشكــره ، من غير أن أنسى أن أداعــب أذن الصبى التى تركت بأصبعى رائحة كريهة تزيد في إيماني بأفكاري.

1968 — 11 — 9

كان يملك ..

لم يعد الى بيته في هذا المساء ...

* * *

لم يكن يملك حتى قوت يومه ، ومع ذلك قالوا له : انك تملك كل شيء ما دمت تملك الحياة التي بين جنبيك .. « وسمحوا لــه بأن يعمل ويكد ، وهم من ورائه يغنمون ، وهو أمامهــم يعيش كبهيمة لا يملك قوت يومه ان لم يتصدقوا عليه بشيء .

اليد العليا أفضل من اليد السفلى . طمح طيلة حياته أن تكون يده مساوية فقط لأيدي الآخرين ، لم يطمح أن تكون يده أعلى ، بل فقط ألا تكون أسفل . ولكن يده ظلت سفلــى تتلقــى الصــدقــات ..

عرق جبينه يصبح خيراً ونعمة للآخرين وهــو يتلقــى صدقاتهم .. لقد قالوا له : « إنه يملك كل شيء ما دام يملك الحياة، وليحمد الله على أنه لا يزال على قيد الحياة ، فالحياة أكبر نعمــة يتكرم الله بها على عباده .. » وشكر هو من أعماقه الاله الــذي وهبه الحياة كما يهبها لبقية عباده، ولسائر الحيوانات أيضا ..

الحيوانات ، هي الاخرى ، لا تملك شيئا ، ومــع ذلــك تحيا .. الا أنها تختلف عنه ، لانها لا تعامل مثلما يعامل ، ربما هذا كلام آخر .. ولكنه هو .. هو يملك كل شيء ما دام يملك حــق التنفس ، فهو وان كان يستنشق الهواء ولو بالرغم منه ، فهذا من حقه .. ولذا كانوا محقين عند ما ضحكوا منه عند ما قال لهم إنه

لا يملك شيئا .. ألا يملك رئتين وهواءا ... ؟

ان المرء بوسيلة آو باخرى يستطيع أن يعيش ، أن يقتات بأي شيء ، ولا مجال لان يقول انه لا يملك شيئا .. هذا اجحاف هذا نكران للجميل ، هذا تشاؤم ..

ـ انه لم يفعل ، ولكن ربما آخرون قد فكروا فى ذلك .

ـ ليس من حق أى كان أن يكون متشائما ويفكر بدلا عنه. ويقول ان هذا حيف ، وهذا ظلم .. فهذا الرجل مع أنــه لا يملك ما يقتات به وهو حي ، فهو يملك الحياة ولذا لا مجال للتشاؤم .. المهم أن يكون حيا ، أما كيف .. ؟ فهذا لا اعتبار له ، فالمثـال واضح ولا مجال للتذكير به مرة أخرى ، هم علموه : ان الحيـاة كرجل ذهب إلى الحرب ، فلا يُستبعد أن يكون إما جرح أولا ، فاذا لم يصب بأذى فلا داعي لان يتشاءم . واما أنه جرح ، وهذا أيضا لا يخلو: اما أن جرحه بسيط واما أن جرحه عميق ، فاذا كان جرحه بسيطا فلا داعي لان يتشاءم ، وان كان عميقا فهذا أيضا لا يخلو : اما أنه قاتل واما انه غير قاتل ، فاذا كان جرحه غير قاتل فلا داعي لان يتشاءم ، وان كان قاتلا فلا مجال آيضا لان يكون متشائما لأنه مات ، وما دام قد مات فلا يمكنه أن يتشــاءم .. هــذا مثـــال رائع ، وهو به يواجه الحياة ، ولا ينبغى أن يكون متشائما ما دام يملك الحياة .. أما كيف ، فلا مجال للبحث فى ذلك .. هنــاك من مات أما هو فلا يزال « يتمتع » بالحياة ، وأنتم لا تدركون مقدار معنى أن يكون المرء حيا ..!

مع أنه لا يملك قوت يومه فهو يملك العالم بأسره ، ما دام يملك قوة النظر،هو ينظر الى كل شيء تقع عليه عينه ،إن أي أحد لا يمنعه من حقه هذا .. فهو وإن كان يملك حق النظر إلى الاشياء

التى تعجبه فمن حقه أيضا ـ ولو بالرغم منه ـ أن يرى الاشياء التى لا تعجبه • ان هؤلاء الذين يسيلون عرقه يومياً ، ويستنزفون دماءه مقابل صدقات يودّ ألا يراهم ، ومع ذلك فهو يشاهدهم بالرغم منه يتبخترون أمامه بعدة ألوان زاهيه ، تذكـره بأنـه يعـرف أسماءها •• ـ الواقع إنها مغرية ، ولكنها فى حقيقة الامر ليست الا ألوان ، وأضواء ، تزعج العين ـ كُن مطمئنا إنها لا تسـاوي شيئا ، انها من الامور الفانية التي تذهب سريعاً ، أما الامور الباقية فهذه التى تملكها أنت ••

ـ أنت أيضا تملك أذنين •• يمكنك أن تسمع بهما كـل شىء •• كل شىء مهما كان ••

ويسمع حقا كل شىء ، سواء الكلمات التي تعجبه ، أو التى لا تعجبه ، ويملك أن يسمع حتى السباب الذى يمطر به يوميا ، ولا يمكنه أن يغلق أذنيه فذلك اجحاف ، نكران للجميل ، ألم يمنح أذنان للسمع ، ألا يريد أن يكون سامعا مبصرا ، أيفضل أن يكون أصـم أعمى •• ؟ لا •• لا •• اذن يلزم الا يغلق أذنيه •• حقا •• معهم حق ، لا ينقصه شىء ، فهو وان كان لا يملك ما يقتات به فهويملك السمـع والبصـر ••

ويملك شيئا آخر : الرجلان •• الرجلان بهمـا لا يـزال واقفا •• انه هنا •• رجلاه حملتاه الى هنا •• أترون •• انه يملك رجلين •• لا •• لا يريد أن يكون مقعدا •• ولا يتصدّق الناس عليه الا عند ما يصيح طيلة النهار طالبا لصدقاتهم ، بل هو يعمل ••

فى العمل عبادة •• هو بالعمل يتعبد ، ولا يطلب من أحد شيئا •• مقابل أن يعيش المرء لا بد أن يعمل ، هذا شىء بديهي•• لا حاجة الى التذكير به •• انه سيعمل •• سيعمل كـل هـذه

الاحجار التى تحيط به هنا هو اقتلعها بفأسه ، بيديه ..
اذن هو يمتلك يدين أيضا .. ؟ أترى انك تملك كل شىء حقـــا ..

❁ ❋ ❋

فى مقلع للاحجار ، بعيد عن المدينة ، وجد الناس شخصاً متكئا على فأسه ، عند ما اقتربوا منه خرّ علـــى الارض .. لأول مرة لم يعد يملك فيها شيئا .. لم يعد يقوى على الوقوف .. ولم يعد يملك النظر الى المحيطين به ، ولا أن يجيب على أسئلتهم لانه لم يعد يملك سماعها . فى حين هوى الى الارض لانه لم يعد يملك الوقوف والسير على قدميه ، ولذا لم يعد الى بيته فى هذا المساء .

1968 — 8 — 17

الفهرس

تـقـــديـــم	3
صـــيـــاد	7
الرجل •• والصخرة •• والزاوية المهملة	13
ســاعــة الــرفــض	19
الحــذاء الجــديــد	25
الــكــلب	33
الــدقــات الثــلاث	41
الأبــكـــم	49
الــســقــف	55
صــيــد الــفــجــر	63
البنــايــة الجــديــدة	71
رفــيـــق	79
انســان يــعـــدو	85
الـــبـــغـــل	93
الـــمـــســـخـــوط	101
طـــيـــور الـــبـــحـــر	107
طـــبـــال	115
علــى المشنقــة	123
الـــنـــار المحـــرمــــة	133
رجــل فقــد وجهـــه	141
وان •• تو •• ثرى •• فور •• فايف ••	147
الـــورد	153

صـــديـــق •• 159
الجيلالـــى الحـــوات 165
الـــرجـــال ••• 173
الـــف فـــرنـــك 179
عـــودة الـــغـــريـــب 185
مـــؤامـــرة •• 191
خـــطـــأ ••• 199
المعلـــم والطفـــل 209
كـــان يملـــك •• 217



صدر للمؤلف

الجولـة الاولـى (مسرحية)

مطابع المغرب الكبير، الرباط 1973

اربعة طـلاب (مسرحية)

مطابع المغرب الكبير ، الرباط، 1974

الفـارس والحصان (مجموعة قصصية)

دار النشر المغربية ـ الدار البيضاء، 1975

الاتفـــاق (مسرحية)

دار النشر المغربية ـ الدار البيضاء 1976

عودة الاوبـاش (3 مسرحيات)

دار النشر المغربية ـ الدار البيضاء

M. I. BOUALLOU

SAQF

Recueil de nouvelles maghrébines

الثمن 10,50 دراهم